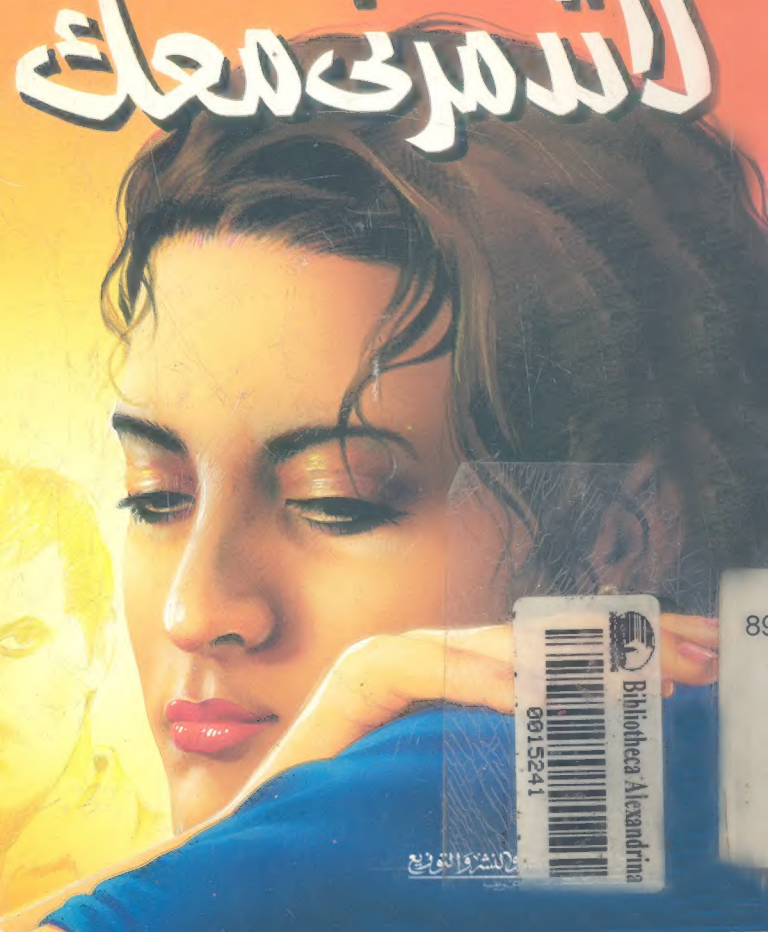


أحمد فريد

لا تتركنا معك



89

لا تدمرنى ... معك

أحمد فريد محمود

لا تدمرنى معك

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبدالله غريب

الكتاب : لا تدمرنى .. معك

المؤلف : أحمد فريد محمود

تاريخ النشر : ١٩٩٨م

حقوق الطبع والترجمة والانتباس محفوظة

الناشر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عمده خريب

شركة مساهمة مغربية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

ت : ٢٤٠١٧٤٣ ، ٢٤٧٤٠٣٨

فاكس : ٢٤٠١٧٤٤

التوزيع : ١٠ شارع كامل حدادى الفجالة (القاهرة)

ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)

المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان

المنطقة الصناعية (C1)

ت : ٣٦٢٧٢٧٧ / ١٥ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)

رقم الإيداع : ٩٨/١٤٥٧

التقليم الدولى : ISBN

977-303-058-X

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سأغمر عيني .. حتى لا تراني

فجأة .. وبلا مقدمات انعدمت الرؤية .. العيون تحقق مذعورة
والضباب الأسود يهجم كما لو كان مارداً من الجن .. الأصوات
حبيسة والانفاس كالفحيح والطائرة تترنح وسط الغموض فى كبرياء
جريح.. صدى الهلع فى القلوب يهز الأبدان .. حاولت إحدى السيدات
الصراخ فكممها جارها، استطاع أحدهم أن يفلت من رقابة المضيفين
وأخذ يدق بكلتا يديه على باب كابينه القائد فى هستريا. بدأت أنات
الخوف تعلو، والطائرة ترتفع وتهبط كأنها تلتف من صدرها الانفاس
الأخيرة .. أو كأنها ترقص رقصة الموت.

ضغط الأستاذ فارس بكفه فوق يد زوجته فتحية .. حاول أن
يحثها على التماسك.

صوت قائد الطائرة يبشرهم بالأمان.

.. لا شئ يدعو للخوف.

.. الطائرة تمر وسط زوبعة ضبابية.

الأذان تلتهم الكلمات فى خشوع .. والطائرة تهبط كأنها تسقط.

و.. فجأة بلا مقدمات بدأت النوافذ تمتص ضوء القمر،
وبدأت العقول تستوعب الطمأنينة، والهمسات تهزول على الشفاه
فى مهمة شريفة.

لحظات قليلة .. تعددت بعدها ردود فعل الركاب. فسقط مغشياً
عليه من سقط وصرخ من صرخ .. هلل آخرون فى بلاهة .. تقيأت
الحوامل وغيرهن من المدلات.. وضحك من ضحك .. وكان ممن
غرق فى الضحك الأستاذ فارس وزوجته فتحية التى سحبت يدها من
كفه قائلة :

- فى مثل تلك الظروف يجب التزام التعليمات .. بالمناسبة
كنت أشعر بنبضات قلبك بين أصابعى.

ابتلع ضحكته مطعوناً فى شجاعته :

- أبداً .. فى الحقيقة كنت قلقاً عليك يا عزيزتى.

جلجلت ضحكاتها وسط هرج الأصوات الأخرى .. ثم ربتت
على كتفه قائلة :

- أحقاً كنت تخشى على يا فارس.

رمقها بنظرة متعالية وهو يجيبها :

- بالطبع يا حياتى .. أم كنت تظنين أننى أخشى على بدلتى
الجديدة !

واشتركا فى ضحكة حاولا من خلالها امتصاص بعض من
اضطرابهما.

الأستاذ فارس اقترب من الحلقة الخامسة من عمره ويبدو فى
ريعان شبابه .. له قامة قصيرة ومنكبان عريضان .. ملامحه تعكس
إحساساً بالصرامة وكثيراً من الحزم اكتسبها من خلال عمله
بالتدريس .. مدرس إنجليزى . كان يعتز أعظم الاعتزاز بتلك الصفة
وكثيراً ما كان ينهر ابنته أحلام إذا ما غفلت عن تنظيف اللوحة
النحاسية المرفوعة على الباب الخارجى .. فهو دقيق فى كل شيء ..
أمين على مسؤوليات المهنة .. حريص على بيته وتلاميذه .. كريم
الطباع ومحدود العلاقات .. عالمه الكبير يضم زوجته ووالده الذى
يقيم معهم بالمنزل وابنته التى تتأهب للحصول على ليسانس
إنجليزى.. وكانت فتحة متلائمة مع كثير من طباعة فهمي تصغره
بسنوات قليلة، وبينهما قصة كفاح طويلة .. ساهمت فى نسج الكثير
من أحداثها .. فهمي أيضاً عاملة، ولها مكانتها الاجتماعية كرئيسة قسم
العلاقات العامة بإحدى الشركات الكبرى .. وتجاوباً مع مبادئ
الأسرة كانت علاقتها بالعمل تتفصل تماماً بعودتها للمنزل .. هى
جميلة .. كشجرة الياسمين تزداد نضجاً وعطراً كلما مرت بها السنين
.. قوامها متماسك وشخصيتها جذابة ... لحديثها طلاوة وفى مقالاتها
نضرة .. بكل تلك الصفات استطاعت أن تحول الدعابة إلى حقيقة ..
الأمر لا يعدو أن يكون مجرد دعابة.

انفتحت أسرهم ذات يوم .. كأي أسرة .. حول التليفزيون
يتابعون حلقات المسابقة للتسلية ويتنافس الجميع على حلها .. حلقة
بعد حلقة .. وعلى سبيل للدعاية أيضاً أرسلوا الحلول في نهاية الحلقات.

وكانت المفاجأة .. تجاوز الحظر صيد السابقة من الجوائز
المتعددة .. السيارة والثلاجة والفيديو .. والتليفزيون .. وتوقف عند
تذكرتين لمدة شهر في رحلة إلى أوروبا متضمنة كل التكاليف ..
وتسللت الحيرة إلى الأسرة الصغيرة. التذاكر لا ترد .. والجد في
عمر لا يساعده على المغامرة .. وأحلام تشغلها دروسها وأمور
أخرى .. بينما كل الظروف مهياة للاستاذ فارس حيث كان قد بدأت
بالفعل أجازته السنوية . وكذلك ليس باليسير على زوجته أن تحصل
على أجازة مماثلة .. تمنع في بادئ الأمر .. طالبهم بطرد الفكرة ..
قاوم كل الآراء .. و ... ولكنه لم يصمد كثيراً أمام إلحاح شريكة
قلبة وحياته.

وانقلبت الدعابة إلى حقيقة .. ثلاثون يوماً من الانبهار والمتعة
.. استغلا كل دقيقة في الاستطلاع والتعاش مع كل ما يحيط بهما ..
حاولاً بصدق ورغبة كبيرة أن ينفضا عن كاهلهما عناء سنوات
طويلة من العمل المتواصل .. شعراً كأنهما في حلم جميل لم يوقظهما
منه إلا تلك اللحظات الرهيبة التي أحاطت بظروف الطائرة ..
وبالرغم من هذا كانت النشوة تدغدغ مشاعرهما وهما يتحاوران في
سخرية عن أيهما كان خائفاً في تلك اللحظات .. وكلاهما ينفي بشدة
أي إحساس بالإضطراب.

فاجأته بضحكات متتالية ومتصلة .. تلفت حوله يبحث عن سبب لضحكها المفاجيء .. لم يجد شيئاً يثيرها إلى هذا الحد .. حاول أن يتساءل .. ولكنها لم تستطع التمالك .. بدأت ترتسم على شفثيه ابتسامة حائرة، كاد يضحك على ضحكها .. استطاعت أن توقف سيل القهقهات وهى تضع يدها على فمها .. ثم التفتت إليه قائلة :

- أسفة .. لم أتمالك نفسى .. فلقد تخيلت لو أن شيئاً حدث ..
فماذا يكون فى الأمر .

اتسعت عيناه فى دهشة متسائلاً :

- أى شىء .. وما الذى تخيلته .

- تخيلت ابنة أختك ذكية لو وقفت أمام "الآلة الاوتوماتيك"
لتسقط لها بعض الحلوى أو كروباً من الجيلاتى .

لم يبد تعجباً وهو يقول :

- وماذا فى الأمر ؟

عاودتها الرغبة فى الضحك وهى تجيبه :

- أكيد ستقف أمامها مطالبة بالمزيد كما تفعل مع الحاج عبده
- بائع الفول .

أنطلق ضاحكاً وهو يضرب كفاً بكف فى نشوة كبيرة .. ثم بدأ يزدهاء إحساسه بالضحك أكثر فأكثر حتى تلقتته نوبة من السعال

المفاجئ .. بينما فترت ابتسامة فتحية تدريجياً وهي تتابعة باستغراب فالأمر لا يدعو لكل هذا الضحك المتواصل .. فأشارت برأسها متسائلة، كأنها تحاول أن تشاركه فيما يدور بخلده .. فسارع بقوله كأنه لا يود أن تفوته تلك الفرصة.

- تذكرت خالك الشيخ حسن لو رآك وأنت تغطسين وتطفين في مياه البحر بما يوهك القطعتين .. لو رآك بعض مرؤوسيك في العمل.

لم تتقبل فكاهته بترحاب .. هزت كتفها بلا مبالاة وقالت :

- وما الغريب في هذا .. ألم تر كيف كان مستر فاكو وهو يصطحب معه في (الويك آند) كل موظفي وموظفات الشركة في رحلة جميلة تنوب فيها كل الفوارق.

ضم شفثيه بقوة وهو يؤكد على كلامها بقوله :

- نعم عندك الحق .. إنهم إناس يعيشون بلا عقد.

لاحقته متهكمة :

- لا .. لا تتحدث عن العقد أرجوك .. فأنت وحدك عقدة كبيرة في حجم الهرم.

- أنا .. !

سارعت وهي توميء برأسها مؤكدة :

أجل أنت .. هل كنت تقبل مثل هذه التصرفات لو كانت لديك
شركة كبرى .. هل عندك استعداد أن تفعل مثل مستر بيلى وهو
يشترك فى لعبة جماعية مع تلاميذه بالمدرسة .. أو تسمح لإبنتنا
أحلام أن تختار علاقاتها بحرية شخصية .. أو ..

قاطعها مقتضباً :

- وما دخل إبنتنا فى الموضوع .. إنها ..

ولكنه توقف عندما اقتربت مضيئة الطائفة منهما وهى تدفع
أمامها بعربة المشروبات. وتناول منها كوبين من العصير .. مد يده
بأحدهما إلى زوجته ورشف رشفة كبيرة من كوبه .. ثم استطرد قائلاً :

- إنها تشترك فى الجمعية الأدبية بالكلية وبالطبع لها علاقات
.. ثم إنها لا تهوى أى مجالات أخرى .. وهى تحب دراستها
ومشغولة بها.

ظهرت ابتسامة ساخرة فوق شفتيها وهى تطل من وراء النافذة
إلى حيث الأفق المجهول وهمست كأنها تحدث الكون كله.

- أنت الذى تحب.

ثم التفتت إليه بحماس.

- يارجل .. الكلية أنت الذى اخترتها وصممت أن تتخصص
فى قسم الإنجليزى بالذات .. مثلك تماماً .. وهى كانت تتمنى أن
تلتحق بكلية الإعلام.

لقى بالكوب الفارغ فى السلة المخصصة لذلك .. وأجابها
بحماس أكبر :

- ولكنها تتجح بامتياز فى كل عام .. وهو دليل على
حسن اختيارى.

وبدأت تزداد شلعة تراشق الاتهامات بينهما ... هى تذكره
بموقفه من أبنته عندما أبدت رغبتها فى الاشتراك مع زملائها فى
رحلة إلى البحر الأحمر .. وهو يتهمها بحياتها المملة التى تسير على
وتيرة واحدة دون تجديد .. فتعاود هى وتصفه بالرجعية وكيف كان
يرفض كل دعوة توجه إليه من شركتها فى حفلاتها المتعددة لاستقبال
كبار زوارها الاجانب، وكثيراً ما تخلفت هى أيضاً بالرغم من أنه فى
صميم عملها .. فيثيرها باتهامه بأنها متفوقة وتلك عادة أكتسبتها منذ
طفولتها .. انفجرت ضاحكة وهى ترد :

- يا رجل ألا تخجل من نفسك .. أتذكر كيف كان موقفك يوم
رأيت أحلام وهى تتحدث مع مدام هدى جارتنا من الشرفة .. أتذكر
ثورتك العارمة على ابنتك لمجرد أن مدام هدى مطلقة شابة وتعيش
بمفردها ..

ثم أخفت عينيها بكلتا يديها كأنها لا تود أن ترى منظراً يثير استياءها .. وأردفت :

- ياله من موقف .. لا أتصور سبيل الاتهامات .. بأنها كذا وكذا .. وبالرغم من أنك لم تر شيئاً، ولم تسمع عنها ما يعييبها.
لاحقها متهمكاً :

- لماذا كنت إذن تؤيدني .. ثم لماذا لم تتشبع معها علاقة بصفتها جارتك ..

صمت لحظة صمت .. وهو يتأهب لسماعها .. ولكنها همهمت بكلمات غير واضحة .. وبدت مرتبكة كأنها لا تعرف كيف تجيبه.

وهنا أخذ يصفق بكلتا يديه فرحاً في تهور، كأنه امسك عليها ما يخلجها، بدت على ملامحها حمرة واضحة وكأنها شعرت بالخجل فعلاً ووجدت نفسها تشاركه الضحك بقوة.

أحتسبت أنفاسها فجأة في صمت متوتر. والطائرة تزحف بسرعة خارقة بعجلاتها على أرض المطار، تابعاً بنظرات متلاحقة أقتراب رؤية المباني .. تتاول كفها بحنان وهي تقسح له مجالاً أوسع للرؤية من النافذة .. بدأت الطائرة تهدىء من سرعتها .. وما كانت تثبت في مكانها حتى انطلقا من جديد في ضحكاتهما بلا مبرر كأنهما يصلان الحديث من جديد .. أو أنهما اتفقا لأول مرة على أشياء كثيرة أهمها الضحك .. حتى ولو كان على أنفسهما.

أشربت الأيدي تلوح متسابقة .. كل الحشد يرحب بالقادمين
على الطائرة .. الملاح بعيدة والأحاسيس متباينة.

ومن وسط الجمع تسالت أحلام بصعوبة إلى الوراء حيث يقف
جدها منفرداً على مقربة، وهى تهلل فى فرح طفولى لا يتناسب مع
سنوات عمرها الذى تجاوز العشرين بأشهر قليلة.

- رأيتها يا جدى .. رأيتها.

وقبل أن يرد بحرف واحد استدارت هى عائدة إلى موقعها
وتركته فى مكانه يقاوم ابتسامته العريضة وهو يتابع محاولاتها
لاستعادة مكانها الأول فى الصدر.

كان الجد أمين فارغ القوام .. عريض الصدر .. شامخ الرأس
.. فى عينيه بريق تتحدث به سبعون عاماً هى حصيلة عمره .. له
شارب أشهب بلون شعره، يمسك بعصا طويلة من خشب الأبنوس
تتصب فوق نهايتها رأس قريبة الشبه من أبى الهول، نادراً ما يتركها
من قبضته وهو لا يحتاج لعصاه بقدر اعتزازه بها .. وكثيراً ما كان
يسترسل فى أحاديثه عن عظمة الفراعنة .. وقصة أبو الهول ..
وكذلك العصا التى أهديت إليه منذ خمسين عاماً .. كان لحديثه هيبه
ولشخصيته قوة تطفى على كل محدثة دون تكبر أو جبروت.

ومرة أخرى تظهر أحلام مسرعة وهى تحته على التحرك.

- هيا يا جدى لنكون فى استقبالهما .. أنهما فى الطريق
للبوابة الخارجية.

كان استقبلاً رائعاً .. تحيط به البهجة وأحاديث المرح ..
اشترك معهم سائق سيارة الأجرة التى ستقلهم إلى منزلهم بمدينة
المهندسين .. والأستاذ فارس يعدد مباحج الحياة فى أوروبا
كالمسحور .. تحدث كثيراً عن الطبيعة الخلابة والمناخ النشط وحرية
الإنسان وأرتفاع مستوى الدخل .. و ..

وأقم السائق نفسه متسائلاً فى شغف :

- والمواصلات .

فبيهره الأستاذ فارس بكلامه عن السائقين وكيف يعيشون حياة
كلها رفاهية وأنهم يستمتعون بحقوق عديدة .. فيقاطعه الرجل
ضاحكاً:

- لكى تلتمسوا لنا العذر عندما نطالب بالمزيد .

ومن وسط الضحكات تتطلق زوجته فتحية وهى تثرثر
بإعجاب يفوق الحد .. وهى تصف طبيعة العلاقات بعضها ببعض ..
وكيف يعيش الفرد هناك بلا عقد أو تشنجات .. وعن الاستقلالية فى
التصرفات .. والرحلات الجماعية وكسر قيود المظاهر الكاذبة ..
ونظافة الطرقات والشواطىء.

ويتدخل الجد وهو يتطلع إلى الطريق إمامه :

- والمتاحف .. هل زرتما أحد المتاحف هناك .. يقولون أن بعض آثارنا فى حوزتهم.

وهنا التقى الزوجان فى نظرة غامضة كأنهما يخفيان سرأ ثم انفجرا بعدها فى ضحكة مشتركة سرعان ما توقفت فى حلقهما عندما التفت إليهما الجد فى نظرة حادة كالسيف .. كأنها قطعت ألسنتهما فجأة أو فصلت رأسهما المختالة .. ثم استدار يتابع الطريق والصمت يجثم على السيارة فى توتر مفاجيء.

بينما حلقت أحلام مع خيالها إلى واقع بعيد عن كل ما يحيط بها .. رأت نفسها تجرى وسط الأغصان المورقة بين أجمل زهور الدنيا .. تستلقى على رمال مرسى مطروح البيضاء .. تتابع غروب الشمس وهى تقف على باب الشالية برأس البر .. تتطلق بجوادها الأبيض تقطع صحراء الأهرامات .. تداعب أسماك الزينة وهى تسبح بجوار شاطئ البحر الأحمر .. تمسح بأصابعها الرقيقة سطح النيل العظيم وهى فى رحلتها إلى أسوان .. تشهد طقوس شروق الشمس والطيور تغرد لمشرقها .. تشارك فى أهازيج جمع القطن .. ترقب النجوم وهى تترقرق على أمواج الاسكندرية .. تستطلع قاهرته من فوق قمة البرح .. تستشق الياسمين والريحان .. تذوب مع كلمات الحب وأروع الألحان.

تخيلت كل هذا وهى برفقة حبها البريء .. والوحيد .. فى
رحلة الأمانى مع عمرو.

ولكنها استعادت وجودها فى سيارة الأجرة خشية أن يكتشف
أحد أمرها.

فهى رقيقة كزهرة الياسمين .. ينبض الشباب فى قوامها
الممشوق .. شعرها بلون الليل فى غيبة القمر .. عيناها تتافسان
شفتيها فى الابتسام.

وقفت السيارة أمام منزلهم بمدينة المهندسين.. تلفتت فتحية
باندهاش كأنها ترى دنيا غير الدنيا.. وبدأ الاستاذ فارس فى حمل ما
يمكن حمله من الحقائق. بينما أسرعت أحلام تبحث عن حارس
المنزل لكى يعاون أباه، وما كادت تخطو خطوة واحدة إلى داخل
البوابة حتى تسمرت فى مكانها برهة .. التفتت وجهها لوجه مع مدام
هدى .. تجاوزتها وهى فى اضطرابها .. وفجأة .. أحست بزلزال
يقوض كيائها الصغير، حيث باغتها صوت أبيها فى نبرة هادئة لم
تعتد عليها .. قائلاً :

- مساء الخير ياهاتم.

التفتت فى ذهول لتتأكد من كلماته .. فطوتها غيبوبة غامضة
قبل أن تفيق من صدمتها حيث سارعت الأم قائلة :

- أهلاً هدى هاتم.

وبذكاء كبير جمعت المرأة شتات ذهنها وهي تجيب :

- مساء الخير يا فارس بك .. مرحباً يا فتحية هانم .. حمد
الله على سلامتكم جميعاً.

اتسعت ابتسامة فتحية وهي تقول متوددة :

- أرجو أن يكون بيننا لقاء قريب يا هدى هانم.

قاطعها زوجها فارس مؤكداً :

- بالتأكيد .. فنحن جيران.

انصرفت المرأة .. تابع ثلاثتهم صعود درجات السلم ..
والحقائب ترتدى فوق كل درجة بعد أخرى .. توقف الأستاذ فارس
يلتقط أنفاسه، أستاذ برأسه ليطمئن على أبيه، تعجب من ثبوته في
مكانة دون حراك .. استقبل نظرة بعيدة منه لم يستطع تحديد
طبيعتها.. قال بصوت مرتفع :

- ألا تصعد يا أبى.

مضت لحظات ثقيلة قبل أن يحرك الجد ساكناً .. وبدأ يخطو
بخطى متزنة فوق الدرج وهو يدق بعصاه على الأرض بقوة ..
كدقات طبول الحرب .. كأنها نذير بالخطر تحثهم على التحصن..
أفكار .. عتيده تجمعت في خلده، شعر بخبرته الطويلة بأن هناك أموراً
قد طرأت على حياة ولدة وزوجته .. استعداد بذاكرته موقف فارس

القديم من المطلقة الثابة .. وكيف كانت غضبته الباطشة على ابنته،
كذلك احتواه الاستياء من تودد فتحية المفاجيء لتلك السيدة .. استشعر
أحاسيس كثيرة كان يعلم مصيرها ولكنه لم يكن يدري سبباً لها ..
أوتعمد ألا يدري.

سارت الأمور مع الأيام طبيعية .. لا جديد فى حياتهم يثير
الانتباه .. دخلت أحلام محرابها الخاص منهمكة فى كتبها استعداداً
للامتحانات .. والاستاذ فارس يقطع وقت أجازته بين المراجع
والاستماع إلى نشرات الأخبار .. وعاد الجد إلى جلسته المفضلة
وراء شرفة حجرته الخاصة، يجوب بنظرة نحو الأفق كأنه أحد
علماء الفلك، أويغوص ببصره إلى أفرع الأشجار الكثيفة التى تحيط
بالمنزل مجتراً ذكريات بعيدة .. ترحل به لأيام الطفولة وكيف كان
ذلك المنزل يتوسط مساحات شاسعة من الفضاء وبعض الحقول .. ثم
تنقله إلى شبابه وفترة عمله بالمحامة .. وتارة أخرى يذوب مع روح
زوجته الغالية التى يكاها سنوات طويلة بعد وفاتها، يذكر سعادتها
الغامرية وهما يشهدان احتفالات وفاء النيل وكيف كانت فرحتهما
بمولودهما الأول والآخر فارس .. ومرافعاته العظيمة أمام المحاكم
وكيف كان يكررها فى المساء على مسامع زوجته، التى كانت تحبته
بالانبهار .. الأعجاب كأنها تستمع إلى أسطورة من الأساطير،
وفرحتهما بالزيارات الريفية وخيراتها .. وجلسات الأصدقاء السامرة
التي قد تمتد ساعات طويلة بين مناقشاتهم السياسية أو الثقافية حول

من يقرض الشعر أو من ينشده عن شعراء آخرين .. تمنى لو كانت
رحلته تطول أكثر مع الذكريات لولا انتباهه إلى فتحية العائدة من
عملها وهي تلوح إليه من أسفل .. بادلها ابتسامة من تحت شارب
الكثيف وهو يهز رأسه بسعادة.

دخلت الشقة وهي تستعيد أنفاسها متجاوزة حجرتة وصاحت:

- كيف حالك يا عمى اليوم

سارع يجيبها في رضاء :

- بخير .. بخير يا ابنتى

اندفعت إلى حجرة مكتب زوجها والبهجة تنوب بين جفניה

- وأنت كيف حالك يا فارسى العظيم

أطلق ضحكة من قلبه وهو يردد :

- آه يا فتحية .. مثلك لن يفلت الشباب من يده أبداً

دنت منه وهي تداعب شعره بأصابعها :

- لا أحد يصدق أنك ستم الخمسين الشهر القادم

ضرب بكفه على صدره .. قائلاً فى حماس :

- ذلك هو السن الأمثل للنضج والرجولة .. ثم .. ألم ترى
مستر "جاك" وهو يقطع ثلاثة كيلو مترات عدواً يومياً .. بالرغم من
أنه تجاوز الستين ..

قاطعته ضاحكه وهى تجلس أمامه :

- هذا المستر جاك .. وليس المستر فارس

وقبل أن يعلق على كلامها. لاحقته قائلة :

- بالمناسبة .. توفيق بك يقيم حفلاً صغيراً اليوم بمنزله على
شرف بعض رجال الأعمال الايطاليين.

هزت رأسها فى تعجب .. ثم استطرقت :

- هذا الرجل شعلة من الذكاء .. سيربح فى تلك الصفقة مالا
يقل عن نصف مليون جنيه.

شرد بذهنه لحظة .. وبدأت على أساريه لمحات الدهشة ثم
قال كأنه يحدث نفسه :

- حظوظ .. هؤلاء الناس يربحون حتى فى أوقات تسليتهم ..
ما أعظم الأعمال الحرة .. أتعلمى يا فتية لقد ..

ولكنها تقاطعه وهى تنهض قائلة :

- دعك من الحظوظ الآن .. وقل لى ما رأيك ؟

أجابها وهو يزال فى شروده :

- رأى فى ماذا ؟

- فى موضوع الحفل يا عزيزى .. ما رأيك لو تصحبنى ..
وتأكد من أنك ستقضى وقتاً ممتعاً.

ركزت نظرتها إليه قائلة فى تحفز :

- أم أنك ستعود إلى عادتك القديمة .. إلى الكسل والتفوق
انتفض رافضاً :

- أبداً لن يحدث هذا .. ولكنى لا أعرف أحداً منهم سارعت
تطمئنه وهى تجذبه من يده ليسيير خلفها.

- ولا أنا .. فتلك المرة الأولى التى سأذهب فيها إلى منزل
توفيق بك .. فانت تعلم أن علاقتى به فى العمل فقط بصفته رئيساً
لمجلس الإدارة.

وفى المساء .. كان الأستاذ فارس يقدم خطوة ويفكر فى العودة
بالأخرى. وهو يسيير بجوار فتحة فى حديقة فيلا توفيق بك.

وفى الداخل نجح فارس فى أن يستوعب الصورة بنظرة واحدة
.. الموسيقى تطفى على أحاديثهم .. بعضهم فى مجموعات .. آخر
يجلس منفرداً .. ورجل وامرأة فى حديث جانبي .. قدمته زوجته إلى
صاحب الدعوة .. شعرت بالنشوة تدغدغ مشاعرها وهى تنصت

لمديح رئيسها أمام زوجها .. قدمهما توفيق بك للمجموعة، وكذلك
لزوجته التى قطعت الحديث مع ضيوف زوجها ورحبت بها .. كانت
رقيقة وجميلة .. لاحظ فارس السن الكبير بينها وبين زوجها ..
عشرين عاماً على الأقل .. دقائق قليلة ذاب بعدها وسط
المجموعات .. زوجته فتحية تتوسط مجموعة ثانية فى الجانب الآخر
.. تحدث كثيراً .. لم يسمع حرفاً واحداً بالعربية .. حتى توفيق بك
رحب بهما بكلمات إنجليزية .. تذكر عائلة جاك وسهراته معهم ..
فجأة ارتفعت الموسيقى .. تجمع الكل وسط الصالة الكبيرة، كأنهم فى
مظاهرة سياسية .. بدأوا يرقصون .. اتسعت ابتسامته وهو يأخذ كأساً
مدته إليه إحدى المدعوات .. فرغ منه ولم يفرغ من رقصته معها ..
أعجب برشاققتها بالرغم من تقاربها فى العمر مع زوجته .. ضحك
من قلبه لرقصة مشتركة بين امرأتين .. شعر بالاجهاد .. دار بعينه
يبحث عن فتحية .. تعجب من قوة تحملها فهمى تراقص شاباً فى
عمر اينتها.

توقفت الموسيقى وارتفعت الضحكات مختلطة مع الثرثرة ..
جلس من جلس وخرج البعض يستشق الهواء فى الحديقة .. اتجه
إلى زوجته بخطوات منتشية .. ثلاث كؤوس متتالية أثقلت جفنيه ..
أسرعت إليه مبتهجة.

- ما رأيك يا فارس .. ألسنت سعيداً.

تداول يدها وأجلسها بجواره على معقد قريب.

- أتعلمى يا فتحية .. لقد أحسست بالذنب لأننى حرمت نفسى
وحرمتك من تلك السهرات الرائعة.

رببت على كفه بحنان قائلة :

- لا تتدم يا عزيزى فما أكثر تلك السهرات .. هى أسبوعية
.. نحن نتعامل مع أغلب شركات العالم تقريباً.

ضحك فى إعياء :

- حتى ولو مرة فى الشهر .. يا تى تى

وكانه وعد قطعه على نفسها .. تعددت الحفلات .. مرة فى
فيلا توفيق بك ومرات فى كازينوهات ليلية .. بلا مصاريف مرهقة
.. فالشركة تتحمل كل الأعباء. انتهت ابنتها أحلام من امتحاناتها ..
الإجازة لازالت فى منتصفها .. تورطوا فى دعوة بعض العملاء
الفرنسيين على سبيل المجاملة .. ولكنهم قبلوها .. وانتقلت لأول مرة
السهرة إلى منزلهم، أحس فارس بالاضطراب فى البداية .. ولكنه
حاول أن يعتاد .. استطاعت فتحية أن تقنع هدى هانم لمشاركتهم ..
قبلت بعد إلحاح بشرط أن يقبلوا دعوتها .. كثرت معارفهم وأختلطت
علاقاتهما بعلاقات هدى هانم .. فاقت سعادتهما كل الحدود يوم لبي
توفيق بك وزوجته إحدى الدعوات فى منزلهما، قرر على أثرها
صرف مكافأة شهرية لفتحية لتغطية مصاريف العلاقات العامة
وتفوقها فى عملها.

بعض العلاقات أتخذت شكلاً خاصاً .. لاصلة لها بالعمل .. دخلت المشروبات الروحية لأول مرة منزلهم .. انكسرت قيود الملل والرتابة .. انعكست الحياة الجديدة على تصرفات الجميع .. بدأ فارس يهتم كثيراً بمظهره، فكر في نقص وزنه بعض الشيء .. واستطاعت أحلام أن تستقطب لنفسها علاقات جانبية تحت إشراف هدى التى باتت من أقرب صديقاتها، كل شيء بالمنزل نال منه التغيير .. ألوان الجدران .. وضع الأثاث فى محاولة لاتساع المكان، النتيجة هى الاستغناء عن حجرة المكتب .. استقرت الستائر فوق النوافذ ليل نهار، أمثلت الثلاثة بالمعلبات واللحوم الباردة وما تحتاجه سهرات القمر .. فتحية تعود من عملها بخطوات متتابة وجسد منهك القوى، وأحلام تمضى أغلب أوقاتها مع هدى أما فى غرفتها أو فى شقة الأخرى، لم يكن هناك ما يشغلها .. الامتحانات انتهت وعمره فى زيارة لبلدته.

الساعة تجاوزت السابعة مساءً. والأستاذ فارس يغط فى نوم عميق ومزعج بينما، بدأت فتحية فى ثنى خصرها .. تمد أطراف أصابع يدها لتلامس قدميها وهى بجواره فى الفراش .. شعر بالبرودة بعد أن أنكشف عنه الغطاء، حاول أن يستعيده وهو مغلق الجفنين ولكنها لحقت به وجذبتة منه قائلة :

- ألم نكتفى بعد .. نومك استغرق ثلاث ساعات.

فرك عينيه بيده وهو يحاول أن يتكلم :

- فى الحقيقة لم أكتفى .. ثم .. ثم دعنى أعوض قلة النوم.

قفزت من فوق الفراش فى وثبة لفئة فى سن العشرين ورددت:

- انهض يا رجل .. يجب أن تستعد لاستقبال ضيوفنا.

نظر إليها منزعجاً قبل أن يقول :

- أى ضيوف .. ألم يكن موعدنا الخميس القادم .. باقى ثلاثة

أيام .. كيف .

قاطعته وهى تقلب فى فساتينها داخل الدولاب :

- مسيو "ديلبالزو" وعائلته مضطرون للسفر بعد غد .. ثم أننى

أبلغت باقى المجموعة بما فيهم مستر "ريمون".

التفتت إليه متجهة نحوه بنظرة ناعمة :

- ولا تنس أن مستر ريمون قدم إلينا دعوة لقضاء عطلة

نصف السنة فى لندن.

فجأة .. انقض على يدها وجذبها فى محاولة لدفنها بين ذراعيه.

امتزجت ضحكاتها بصراخها وهى تسعى للتخلص منه ..

أمطرها بقبلات عشوائية وهوىقول لاهناً :

- لم أنس يا عزيزتى .. لم أنس .

ولكنها تتجح في الإفلات منه مبتعدة في دلال قائلة :

- ليس الآن يا فارس.

وأختال فارس بنفسه وهو ينهض من فراشه .. كانت خطواته تدب على الأرض كأنه يتقدم كتيبة حربية، أو كأنه يلوح بسيفه من فوق جواده .. ثم اقترب منها تماماً :

- سأنتظر إلى ما بعد الحفل يا تى.

بدأت الأنوار تتلألأ في أرجاء المنزل .. كما أن الإضافات الجديدة في الإضاءة جعلت من أركانه كأنها منفصلة حيث الشعاع الأحمر يذوب في آخر أصفر، والأزرق يلتقى مع الأبيض .. ومصابيح أخرى مسلطة على منتصف الصالة الكبيرة.

بينما انتهى الأستاذ فارس من استعداده، ووقف يدور حول نفسه أمام المرأة يتأكد من استقامة البدلة عليه .. بعضهم بدأ في الحضور وزوجته انشغلت بهم .. هم بالانصراف ولكنه تراجع مسرعاً، أمطر نفسه بنصف زجاجة العطر .. ابتلع قرصاً من الأقراص المنبهة التي أهداها له أحد أصدقائه .. عاد للمرأة مرة أخرى .. شعر بأنه ازداد قوة .. وما كاد ينتهي من العمر المؤدى إلى حيث يجلس ضيوفه حتى ثبت في مكانه عندما سمع صوت أبيه نادياً :

- يا فارس

تراجع بخطوات بطيئة .. إندلف لحجرة نصف مظلمة. تحسس
الجدران حتى أنار بقية الغرفة .. كان الجد أمين جالساً بجوار النافذة
وهو ممسك بعصاه .. ثم قال :

- اقترُب .. فأنا لى حديث معك.

تقدم فارس خطوة ولكنه علق الأخرى فى الهواء عندما
استطرد أبوه ... إغلاق الباب

أغلقه.. إقترَب منه وفى رأسه دوامات من الحيرة .. وبصوت
تشوب نبراته الاضطراب تساءل :

- ماذا فى الأمر يا أبى .

جحظت عين الجد وهو يقول :

- أنى أسألك أنت .. ماذا فى الأمر ؟

- أى أمر يا أبى .

ارتكز الجد على عصاه وهو ينهض، بدا عملاقاً كعادته .. ثم
استدار للنافذة قائلاً :

- هذا التسيب .. والحفلات .. والأمور الماسخة.

تدلّت ابتسامة مطمئنة على شفتى فارس .. كأنه كان يتوقع
غير ذلك .. وهمس بثقة :

- لا أرى أموراً ماسخة يا أبى .. ثم أنها علاقات عامة تحتمها
ضروريات العصر.

التفت إليه يحدق فيه بقسوة :

- أى ضروريات هذه التى تجعل من أسمك على كل الألسنة.

حاول أن يفعل وهو يجيبه :

- يا أبى لا تنس أنى رجل مثقف .. ومهنتى مدرس أول لغة
إنجليزية .. ولست شيخاً فى كتاب.

أقترب منه الجد أمين ورأس العصا ترتعش بين أنامله :

- أنا لا أطلبك أن تعيش حياة شيخ الكتاب .. ولكنى أطلبك
أن تعود لحياتك الطبيعية وما تفرضه عليك تقاليدك.

تراخت نبرة صوته وهو يقول :

- يا أبى أمور كثيرة قد تغيرت فى الدنيا .. المدنية فرضت
نفسها على كل التقاليد البالية.

أجاب بتهكم :

- التحضر والمدنية فرضاً عليك أن ترتدى تلك الملابس
المزركشة متشبهاً بالنساء.

حاول فارس أن يقاطعه .. ولكن أباه لم يمنحه الفرصة واستطرد:

- وأن ترى زوجتك تراقص رجلاً آخر .. وتراك هي في أحضان امرأة أخرى .. أليس كافياً أن تتحدث لبغتهم، لكى تكون مثلهم.

لم يتمالك فارس نفسه .. وانتفضت عروق عنقه فجأة قائلاً :

- أرجوك يا أبى .. أنت تعلم أنى رجلاً محترم .. ولا ولن أسمح لأحد أن يتدخل فى حياتى بعد أن وصلت إلى هذا السن.

استدار منصرفاً .. ثم توقف برهة أمام الباب واردف قائلاً :

- حتى ولو كان .. أنت.

فتح الباب بعصية بالغة ليفاجأ بزوجه وهى تسحب مدام هدى من يدها وهما فى ضحكة مشتركة .. ثم قالت :

- أين أنت يا فارس .. الجميع وصلوا.

أوما برأسه وهو يحاول أن يتخلص من أسارير الغضب المرئسة على وجهه .. وبدأ يخطو إلى خارج الغرفة ولكنها استوقفته مرة أخرى :

- انتظر .. مدام هدى تريدك فى أمر ما.

نجح فى أن يرسم ابتسامة باهتة على شفتيه :

- تحت أمرك يا هدى هانم.

سارعت هدى وهى تحيط بذراعها خصر زوجته .. قائلة :

- لقد فهمت من فتحية هائم أن الأمر فى يدك وحدك.

اتسعت ابتسامته قبل أن يتساعل :

- أى أمر .. لقد شغلتنى.

- سنذهب فى رحلة لمدة يومين إلى الإسكندرية .. وأرجو أن تجعلها تذهب معنا.

رمقها باندھاش وهو يكتم ضحكته :

- من .. فتحية.

ولكنه سرعان ما اقتضب عندما قفزت هدى على الأرض عدة قفزات ساعدها على ذلك سنوات عمرها الخمس والعشرون قائلة :

- لا .. لا .. بل أقصد أحلام.

وبلا إرادة التفت وراءه لتضطلم نظرتيه بعين أبيه الذى عاد إلى إدراجه جالساً .. ثم استدار مرة أخرى إليها .. هامساً فى توتر :

- ولكن .. أنت تعلمين أن ..

لاحقته فتحية وهى تركز نظرتها فى عينية كأنها تذكره بشيء غائب عنه.

- ابنتنا عاقلة يا فارس.

وكانه يللم شتات كبريائه أمام والده .. التفت تجاه هدى
هانم قائلاً :

- ومتى ذلك .

- يوم الجمعة القادم.

أطلق زفرة من صدره قبل أن يجيب.

- يومان فقط.

وأخترق بجسده من بينهما، كأنه يسعى للابتعاد من هذا المكان
.. ولكن الصوت الأجش أو قفه .. أو كبل خطواته عندما تراسى إلى
مسامعه صوت أبيه قائلاً من الداخل :

- أغلق الباب ورائك.

تقدم ببطء وأغلق الباب وهو يسقط نظرتَه إلى الأرض ولم
يرفعها إلا وسط ضيوفه الذين أحاطوا به مهللين .. وهو يوزع عليهم
ابتساماته .. ولكنه لم يستطيع أن يتخلص طوال سهرته من نظرتَه
الحائرة إلى غرفة أبيه المغلقة بعد كل ساعة تمر عليه.

★ ★ ★

كان صباحاً رائعاً فى كل شىء .. يوم عادى فى حياة أحلام، شعرت بالشمس كأنها تشاركها بهجتها.. فراحت تفرش دفتها فى كل مكان .. والعيون حولها تبرق فى سعادة وهى تستطلع جمال الطبيعة وابتنسامة الورود.

فاليوم موعدها مع عمرو .. موعد طال انتظاره على راحتى الشوق واللهفة، كان آخر لقاء بينهما منذ عشرين يوماً قضاهما عمرو فى بلدته .. لم يكن فى زيارة لأهله، فهو يتيم الأبوين منذ نعومة أظافره، ولكنها زيارة دورية تحددتها تعليمات عمه للأشراف على حسابات محله الذى يملكه بالبلدة.. وهو مدين بالكثير لذلك العم الذى قام برعايته حتى تخرج من كلية التجارة منذ أربع سنوات .. كان كريماً معه ولم يشعره قط بأية أحاسيس منلة، بل سعى جاهداً أن يضمه إلى حظيرة الانتماء ليقضى على شبح اليتيم فى حياته .. ولم تتبدل أحاسيسه بعد مولودته الوحيدى بشرى، فلا تقرب فى المعاملة ولا مجال لمشاعر الغربة بينهما .. سنوات طويلة مرت لتحمل نهايتها كلمة الزمن وأحكامه، فبشرى بدأت تستقلب لجسدها بوانر الأنوثة .. وعمرو جاملته سنين الحرمان برجولة مبكرة.. ولم يجد العم مناصاً من أن يستغل فرصة وجود غرفة مستقلة وخالية فوق

سطح منزلهم وأستأجرها لعمره.. كان ذلك الموقف بمثابة أول رسالة يتسلمها الصبي اليتيم من يد القدر .. وكان عليه أيضاً أن يرضخ .. وأن يعتاد.

لم تكن زيارته هذه المرة عادية حيث كان برفقة العم الذى تلقفته دوامات أعماله ومجاملاته .. فانشغل عن نفسه وعنه، ولم يستطع عمرو بل لم يجرؤ على مجرد التفكير فيما يمكن أن يحدث له إزاء تغيبه المتصل عن عمله .. قد يفصل .. ولكن فرصة البحث عن عمل آخر قائمة، أما علاقته بعمه فلا فرصة فيها للاختيار.

هاجمت الهواجس قلب أحلام الصغير عندما التقت نظرتها الأولى بوجه عمرو العابس وهو غائب مع أفكاره ينتظرها فى الكازينو المعتاد للقاءهما.

أسرعت تجاهه .. وبكل الحب وقفت أمامه هامسة.

- عمرو .. أحمد الله أنى رأيتك بخير.

تخلص من شروده وهو يتلقف يدها الممتدة ليجلسها أمامه.

- أهلاً يا أحلام .. كم كنت أشتاق إليك.

مالت برأسها قليلاً فى دلال قائلة .

- لو كائنات تلك هى الحقيقة .. ما كنت تغيب طوال هذه لمدّة.

اطلق زفرة حبيسة من صدره، فشل أن يخفيها عنها.. وأجاب:

- تعلمين يا أحلام ظروفى .. فأنا لست ملكاً لنفسى و ..

لمحت الألم وهو ينطق فى عينيه .. فهى قريبة من أعماقه
أكثر من قربها لنفسها، حاولت أن تتجاهل ذلك البركان المتأجج فى
صدره وقاطعته قائلة :

- بالتأكيد يا حبيبى .. إنسان رقيق مثلك فيك صفات الفنان ..
طبيعى أن يكون ليس ملكاً لنفسه.

لم يبتسم .. ولم تعلق هى أيضاً .. أخذتها رحلة صامتة طافت
بها حول كل الظروف واستقرت فى النهاية عند قصة حبهما التى
دامت أكثر من ثلاث سنوات وهما على أمل أن تتوج بالزواج ..
والأمل يخبو فى عناد مع كل يوم يمر .. وظيفته فى الشركة لا تبشر
بتحقيق أحلامه قبل سنوات عديدة، بالرغم من علاقاته الحسنة بكل
رؤسائه .. وهى أيضاً تدرك بأن عليها مسؤولية ليست بالقليلة، هناك
عقبات تنتظرها على طريق آمالها .. كيف ستقنع أسررتها بزيعة غير
مستقرة .. وكيف ستواجه رفضهم الحتمى .. هموم يثن تحتها ذلك
الكاهل اللين، ولكنها استطاعت من خلالها الحب الكبير أن تجعله فى
خيالها بطلاً اسطورياً تنهاوى تحت قدميه كل صعاب الدنيا.

فاجأته قائلة :

- بالمناسبة لقد عاد أبى وأمى من رحلتها .. لا تتصور مدى
سعادتهما .. أنهما يحكيان عجباً عن تلك البلاد.

- لم يبد اهتماماً، مكتفياً بنظرة مسالمة .. فاردفت :
- ولكنى أشعر بتغير غريب فى حياتنا .. لقد أمضيت لألى أيام
عمرى فى الفترة الأخيرة .. حفلات .. سهرات .. علاقات جديدة.
وأمسكت لحظة عن كلماتها وكأنها تصحح مفهوماً فى خاطرها
وخاطره، ثم قالت :
- ولكنى فى نفس الوقت كنت تعيسة لغيابك عني.
أغرته تلك التطورات المفاجئة للتساؤل :
- معقول .. فارس بك أمين يسمح بالحفلات والسهرات
لاحقته فى نشوة :
- وأكثر من ذاك .. آه .. كم أنا سعيدة لذلك التغير .. أنه فى
النهاية لصالحنا ... لقد أصبحت قريبة جداً منه .. وربما تكون هناك
فرصة عظيمة لاقناعه بظروفنا.
- ابتسم بصعوبة قبل أن يجيبها.
- لا أظن .. لست متفائلاً يا أحلام.
- لا تعقد الأمور يا حبيبى .. ودع الأيام تأخذ مسيرتها ..
والآن أسمح لى بالانصراف فأنت تعلم ما يمكن أن يحدث لو تأخرت
أكثر من ذلك.

تلملم على غير رغبة ليوذعها .. تمنى لو طال بهما اللقاء ..
غير أنها نهضت مسرعة قائلة :

- متى أراك يا عمرو .

وقف بتكاسل كأنه يتحايل على الواقع، فقد تشفق هي على
وحدثه .. ثم قال بنبرة كالأنين :

- هل يناسبك يوم الجمعة القادم .

شعر بنبضات قلبه تزلزل كيانه عندما سارعت قائلة :

- لا .. لا .. ليس الجمعة .. لنؤجلها ليوم آخر .

تساءل بنظرة مندهشة دون أن ينبس بكلمة واحدة ..
فاستطردت :

- نسيت أن أخبرك بأمر قد يدهشك .

أى أمر .

- سأسافر إلى الإسكندرية فى رحلة لمدة يومين .

أشاح بوجهه قليلاً وهو يقول :

- مع أسرتك .. ومتى ستعودين .

بدأ الاضطراب يزحف على أسارير وجهها ثم أجابت :

- سأسافر بدونهم .. ولكنى سأكون بصحبة جارتنا هدى ..

التفت إليها منزعاً :

- ماذا قلت .. ستسافرين بمفردك.

قالت متلعة :

- لست بمفردى .. وإنما .. أقصد جارتنا هدى ستكون معى.

قاطعها قائلاً :

- كيف .. هل وافق فارس بك.

تجاهلت سؤاله وهى تقول :

- أنت تعلم عناء الامتحانات .. ثم إنها فرصة لكسر قيود
الحصار الذى كان مفروضاً على .. أقصد علينا أنا وأنت.

ثم نظرت إلى ساعتها فى قلق وهى تسحب خطواتها إلى
الخلف قائلة :

- والآن يا عمرو .. أرجو ألا أتأخر .. فمتى أراك.

وبلا تفكير ردد كأنه يحدث نفسه.

- عندما تعودين.

استدارت مسرعة بخطواتها .. وتركته يتابعها بنظرة مذهولة
وهو ثابت فى مكانه كأنه تجمد فى قلب جبل من الجليد.

كان عمرو فارح الطول .. له بدن رياضى وبشرة بلون صفاء
الذيل .. فى عينيه نظرة طالت حيرتها، وعلى قسماط وجهه استقرت
بصمات الحزن .. له نبرة كصوت الصدى فى أعماق الكهوف زاده
غموضاً .. يتوج رأسه شعر أكث قاس، خصلاته تشبه نوبان الليل
فى أحضان الفجر.

سار يقطع الطريق إلى منزله بخطى حائرة كإفكاره .. الصور
أمامه تغلفها ستائر ضبابية يصعب وضوح الرؤية خلالها، كأنه
رافض لكل رؤية غير التى استقرت فى مخيلته، حيث أمتلأت عيناه
بوجه أحلام وهى فى ثوبها الجديد .. أو فى أحلامها الجديدة.

بدأ يصعد درجات السلم وهو منهك القوى بعد رحلة دامت
ثلاث ساعات قطعها سيراً على الأقدام بدءاً من كازينو مدينة
المهندسين إلى منطقة العباسية حيث يقيم .. وما كاد يتجاوز شقة عمه،
حتى استوقفته بشرى منادية :

- عمرو .

التفت إليها والأعياء يضغط على جفنيه .. فأردفت :

- أهلا يا عمرو .. حمد الله على سلامتكم .. لم أرك عند
وصول أبى ..

بدأ يهبط إليها وهو يجاهد فى جذب ابتسامة على شفثيه :

- بشرى .. كيف حالك يا ابنة عمى.
- بخير يا عمرو .. لقد طالعت غيبتك عنا .. لك وحشة كبيرة.
- راعها ذبول نظرتة عند اقترابه منها .. ثم قالت :
- ماذا بك .. أراك مبتئساً .. أرجوك لا تخف شيئاً عنى.
- لاشيء يا بشرى .. لاشيء .. ولكنى مرهق قليلاً.
- رفعت وجهها إليه وهى تداعبه قائلة :
- أحقاً إرهابك .. أم عذاب حب جديد .. أنا أعرفك جيداً.
- لم ينجح فى الابتسام .. بينما سارعت هى متذكّرة :
- آه يا عمرو كدت أنسى .. لقد وصلك خطاب من شركتك ولكنه يقطعها وهو يومئ برأسه.
- أعرف مضمونه .. لقد كنت متوقفاً أن يصلنى هذا الخطاب.
- أى مضمون .. ومالك هكذا .. اتعرف أنك تبدو غير وسيم عندما تكتب.
- تتهد مستسلماً قبل أن يجيبها :
- لقد فصلونى من عملى .. أليس كذلك.
- لم يبد عليها التأثير .. واستمرت قائلة :

- مسكين يا ابن العم .. هذا جزاء من يتأخر كثيراً عن أهله .. وأحبابه.

طحن أسنانه مجترأً ألمه، واستدار ليصعد مرة أخرى وهو مطأطء الرأس دون أن يحدثها، ولكنها تلحق به عدة خطوات .. ثم قالت :

- ياعمرؤ .. يبدو أنني أخطأت توقيت المزاح معك .. على كل حال لا تخشى شيئاً، لقد توقعت طول مدة غيابك .. فذهبت إلى شركتك وتقدمت بطلب أجازة مرضية لك بعد سفرك بخمسة أيام.
سارع متلهفاً :
- والخطاب.

ضغطت على ذقنه بأصبعها قائلة :

- خاص بتحويلك لمستشفاكم أيها المريض العنيد.
تراخت أسارير وجهه دون أن يسعى لذلك .. ثم همس إليها قائلاً:
- أنت دائماً تفعلين الكثير من أجلى .. أنت ..
فاطعته وهي ترنو إليه بنظرة حانية :
- لا تقل شيئاً .. واصعد لتستريح.

ثم أصرعت مندلفة إلى شقتها دون أن تلفت إليه، كأنها تخشى مواجهته تلك اللحظة أو تخشى أن تغرر بها نظرتها وتبوح بما حاولت كتمانها سنوات طويلة.

كان لبشرى جمال يحسدها عليه أغلب الفائنات من أقرانها ..
لها قامة ممشوقة فى كبرياء، وشعر بلون الليل ينساب فوق ظهرها،
كانه يحميها من طعنات القدر .. فى عينيها نظرة حب لا تغيب عن
حدقتها .. مرحة جذابة فى حديثها .. مترنة فى آرائها وحريصة على
اسرارها .. فبالرغم من علاقاتها المتعددة سواء قبل تخرجها من
معهد السكرتارية أو بعد ذلك، إلا أنها لم تغش لأحد ما يجيش فى
صدرها من حب لعمره .. خاصة إليه .. كانت تخشى من لحظة
تنهار فيها ذكريات سنوات طويلة .. عاشت خلالها تراقب إحساسها
وهو ينمو فى قلبها، كانت تخشاه .. وتخشى الغموض الذى يفرضه
حوله، واصراره المستمر على التوقع من خلال تلميحاته
الصامتة لها.

من أجل هذا لم تستطيع مواصلة الحديث معه تلك اللحظة ..
ففى المرة الأولى التى يحدثها عن نفسها وعن مواقفها الكريمة معه
.. خافت أن يجرفها تيار الحنان تجاهه، قد تفوز بكل شيء .. وقد
تخسر كل شيء .. فأثرت الصمت، بل الهروب .. فحب على أمل
خير لها من مغامرة غير مضمونة.

أما هو فلم يستطيع أن يترجم موقفها الأخير تجاهه .. ولم
يحاول ذلك .. كان تحت قبضة دوامة عنيفة تعبت بأعماقه كيفما شاعت.

إستلقى على فراشه وعيناه تدور تحت سقف الغرفة كأنه يبحث
عن شيء مجهول .. يريد أن يراه .. كانت صور أحلام ملتصقة
بخياله بقوة. انتابه إحساس بالخوف من الغد، شعور غامض داهية
وهو يسترجع كلماتها الأخيرة .. كانت غريبة في تصرفاتها. فآثرة
فى لقاتها. متوترة فى حركاتها. لم تكن كعهده بها.

اعتدل فى جلسته على الفراش ليطل من خلال النافذة إلى لا
شيء، فقد تنزل كثيراً للنوم فأبى عليه.. حاول أن يجد تفسيراً
لتساؤلاته .. ولكنه فشل. من هى هدى .. وماذا عن العلاقات الجديدة
.. والحفلات والسهرات، وكيف انقلبت صورة فارس أمين رأساً على
عقب .. أين الحزم والتزمّت الذى كان يسمع عنهما ؟ كيف سيسمح
لها بالسفر بمفردها .. ولماذا ؟

تمنى لو رآها الآن ليطفئ لهيب حيرته .. نهض ودار حول
نفسه فى الغرفة .. راوده خاطر أن يرتدى ملابسه ويبحث عنها
القلق كاد أن يفجر رئتيه.

اقترب من النافذة، مسح السماء بعيون لا ترى .. أحس
بالحاجة إليها .

همس فى صدره :

.. أينها تدرى.

ولكنها لم تكن تدرى .. وكيف يتسنى لها ذلك وهى منشغلة فى ترتيبات حفل الليلة الذى يقام على شرف وفد آخر. ما بين تتسيق الزهور فى أوانيها، وتأكدها من صلاحية الإضاءة منذ الصباح، ثم تقوم بطهى بعض المشهيات أو تصنيف اسطوانات الموسيقى حسب جنسية الضيوف.

وبينما كانت تطمئن على نظافة الاثاث، وهى المرحلة الأخيرة .. تقدم نحوها الجد أمين وهو يتابعها بنظرته الحانية وقال منادياً :

- أحلام ..

وما كادت تشعر بوجوده خلفها حتى قفزت إليه تحتضنه كعادتها معه .. وعبثت بشاربه وهى تقبله :

- ما أعظمك يا جدى .. أنت أعظم جد فى الوجود.

ربت على كتفها بيد وأحاطها بالأخرى الممسكة بعصاه قائلاً :

- أريد أن أتحدث معك قليلاً يا أحلام.

جذبتة من يده برفق لتجلسه بجانبها وهو يطاوعها.

- لاتقل قليلاً يا جدى أمين .. بل قل العمر كله.

أطلق زفرة من صدره، وقد بدا عليه شيء من القلق.

- إذن فأنصتى يا ابنتى.

- ماذا بك يا جدى ؟

دقق النظر.. إلى عينيها :

- أحقاً ستسافرين وحدك مع تلك المرأة التى تدعى هدى

مالئت برأسها قليلاً وهى تتسائل.

- وماذا فى الأمر يا جدى.

بدأت نبرته تزداد خشونة :

- تتسائلين ماذا فى الأمر .. أليست هدى تلك صاحبة السمعة

السيئة .. ألم نمنعك عنها من قبل.

نهضت بهدوء من جانبه .. ثم أجابت وهى مولية له ظهرها :

- من قال هذا يا جدى.

لاحقها وهو يدق بعصاه على الأرض :

- أبوك نفسه قال هذا من قبل.

التفتت إليه وهى تخفى إنفعالها.

- ولكنه موافق الآن .. بل كثيراً ما يطلب منى أن استدعيها.

قاطعها ثائراً وهو ينهض بعصبية :

- أبوك مسه الجنون.

- جدى .. لا تقل هذا عن أبى.

تمالك نفسه وهو يمسح بكفه على شعرها.

- يا ابنتى .. أنت لا زلت صغيرة، والحياة مليئة بالمنحنيات.

رفعت عينها إليه وقد ترققت دموعها بين جفنيها :

- بالرغم من امنيتى للسفر إلى تلك الرحلة .. إلا أننى على

استعداد لألغاء الفكرة من أجلك يا جدى.

- لا يا ابنتى لقد فات الأوان .. ولكن أتوسل إليك أن تراعى

نفسك جيداً .. فأنت ..

ولكنه توقف عن الحديث عندما شعر بحضور فارس من

الخارج وهو محمل ببعض حاجات الحفل .. فسكن برهة، حاول أن

يستوعب من خلالها الموقف، ثم تقدم نحوها مدعياً اللامبالاة.

- أهلاً يا أبى.

والتفت إلى أحلام قائلاً :

- كيف حالك يا أحلام.

أسرعت نحوه وتناولت ما بين يديه ثم توارت عن نظرة، بينما

جلس فارس على مقربة من أبيه، ومضت لحظات صمت متوترة قبل

أن يبادره :

- مازلت غاضباً منى يا أبى.

اشاح الجد بوجهه عنه .. ثم بدأ يتحرك إلى غرفته وهو
يضغط على رأس عصاه ولكن فارس ينهض مسرعاً وراءه مردداً :

- يا أبى .. دعنى أفسر لك بعض الأمور .. أننى استفتت
كثيراً من تلك العلاقات وأصبحت الآن أقوم بترجمة كثير من الأعمال
والكتب من خلالهم .. وأنا أربح الكثير من هذا.

التفت إليه الجد وفى عينيه نظرة جامدة :

- لعلك تربح أكثر فيما بعد.

ثم تركه منصرفاً.

لم يتحرك فارس من مكانه .. فكر كثيراً فى كميات أبيه
الأخيرة. لم يجد لها معنى فى ذهنه ولم يحاول أن يجد، فقد كان قلقاً
من أمور أخرى .. ربما لأنه كان يشعر بأن أباه يرصد كل تصرفاته
فى صمت وهو فى غرفته.

كان يدرك بأن الموقف بينهما ليس مجرد اختلاف فى وجهات
النظر، فعلاقاتهما بدأت تأخذ مجرى جديداً لم يعتد عليه معه، كما أنه
يعرفه جيداً عندما يتبنى فكرة ما.

وجدته فتحية على حاله بعد عودتها من عملها، لم يستطيع أن يخفى عنها حيرته وصارحها بما يعاينه من موقف أبيه، لم تعر الأمر أهمية في البداية.

ولكنه فأجاها باقتراحه قائلاً :

- أرى ألا نستقبل أحداً في المنزل اليوم.

تلقت كلماته كأنها نهاية الدنيا.

- ما هذا الهراء الذى تقوله .. ألا تعلم أن الجميع قد ..ولكنه يسارع مصححاً قصده.

- أنا لم أقل نلغى حفل اليوم .. بل أفضل أن نحتفل بهم فى الخارج، على الأقل اليوم فقط.

بدا عليها الاستياء واضحاً وهى تجيبه :

- ثم بعد .

حاول أن يتكلم . ولكنها استطرت وهى تحيط كتفه بنزاعها :

- اسمع با فارس. لقد لاحظت كثيراً تدخل عمى فى شئوننا..

ولكنى كنت اتجاهل موقفه من أجلك يا حبيبى.. والمشكلة ستظل قائمة سواء انتقلنا للخارج اليوم أو لم نفعل فالليلة ليست الأخيرة فماذا سيكون الموقف بعد ذلك.

احتوته لحظة ضيق ازداد من خلالها بؤساً، ثم أدارت وجهها تجاهه وهى مشفقة على حيرته.

وهمست فى تدلل :

- أنها ليست مشكلتنا فقط يا فارس .. إنها مشكلة أجيال ..
المهم أن تكون أنت مقتنعا بتصرفك.

قفزت كالنمرة المتربصة وجلست أمامه على ركبتيهما ثم أحاطت وجهه بكفيها وباغتته بقيلة باردة .. وتساءلت :

- هل فى تصرفاتنا ما يعيننا يا حبيبى.

نفى بإشارة من رأسه كالطفل الوديع، ولكنها لم تكتف بذلك وأعادت عليه سؤالها فشعر بنخوة الرجولة تعبت بأعماقه .. وأجاب مؤكداً :

- لا بالطبع .. ولكنه اثارنى بتهكمه.

نهضت غير مبالية بتأثره .. وقالت :

- لا تهتم يا عزيزى .. قل لى أولاً هل اخترت المكان الذى سنسهر فيه.

انتفض من مكانه كأنه كان يتحين تلك الفرصة قائلاً:

- أى مكان يا حبيبتى .. أى مكان.

حاول أن يحتضنها ولكنه تراجع عندما شعر بوجود أحلام خلفها وهى تصيح :

- أراكما تتفان على أمر هام .. ألا تشركانى معكما.

ضحكاً من أعماقهما .. ولكنها تذرمت فى دلال عندما علمت بما سيحدث الليلة .. فهى أعدت كل الترتيبات وبذلت جهداً غير قليل .. كيف ستقضى ليلتها وحيدة بعد أن هيات نفسها لقضاء وقت ممتع .. ولكنها سرعان ما هدأت أمام اقتراح والدتها.

- يمكنك التسامر مع هدى .. فهى أيضاً بمفردها اليوم.

تدخل فارس مبتهجاً كأنه يريد التخلص من هذا المأزق.

- هذا عظيم .. ثم أنت ستسافرين بعد غد، وأنتما فى حاجة إلى التشاور.

ولم تعلق أحلام وتركتهما متجهة إلى غرفتها كأنها رضخت لشيء لا ترغبه .. ولكنها فى حقيقة الأمر كانت سعيدة.

نقلت على فراشها عدة مرات كما لو كانت تدور حول الدنيا وترى مباحها .. واختلطت الأفكار فى رأسها .. تارة تقذفها إلى شواطئ الاسكندرية وأخرى تدغدغها أحاسيس الحرية .. ثم تهدأ مستسلمة لصورة عمرو وأحلامها معه .. ثم تعود لتسترجع أحداث الليالى الماضية مع ضيوف أبويها .. شعرت بالنشوة تخبو فى صدرها عندما تذكرت كلمات الأطراء التى تحدث بها الشاب الفرنسى

وترقرقت ابتسامة على شفتيها وهى تستعيد العبارات الفكاهية التى كان يهمس بها فى أنفها ذلك الإيطالى اللوسيم .. كم كان جريئاً .. انقلبت على بطنها وهى تتوقف فى استحياء عند ذلك المشهد الذى جمع بين فتاة فى عمرها مع رجل فى عمر أبيها من خلال قبلة عجيبة، يومها لم يفزعها ذلك المشهد بقدر ما أثار دهشتها اللامبالاة التى شملت الجميع فاحست بالحرج لتطفلها على حرية الآخرين.

هكذا غابت فى رحلة دامت ساعات طويلة كاد أن يغلبها النعاس ولكنها قاومته فى أصرار .. اكتشفت أنها لم تشعر بأنصراف والديها .. الليل بدأ يفرش سدوله على الأفق .. لم تحتر كثير فى اختيار ملابسها والأمر لا يستدعى منها التزين، صديقها على بعد خطوات من الشقة .. إنتبهت لوجود جدها وهو يجلس منفرداً أمام شرفته أثناء ذهابها إلى هدى .. تمننت لو توقف الزمن تلك الليلة .. بهرتها أمور عديدة وهى فى جلستها مع هدى .. الأثاث والديكور. الملابس والمجوهرات. التحف وأحدث الاشرطة الموسيقية .. براعة الحديث عند صديقها، فهى تتحدث فى كل شيء وتغلف كل شيء .. كانت المرة الأولى التى تتفرد معها فى أحاديث طويلة بلا أصدقاء أوضيوف .. كانت هدى تنتقل بها من غرفة إلى أخرى ومن أقصوصة إلى غيرها، حديثها كثيراً عن ثرائها وزوجها الأول، عن أحاسيس الوحدة بالرغم من كل التجمعات التى حولها .. عن أمور بعض الرجال ونكاء بعض النساء .. عن المجتمع ونظرة الآخرين الظالمة .. عن افتراءات الناس وهم ما بين حاقد أو عاجز .. وعن

الحب العصرى وما يجب أن يكون عليه. وبأن لاعطاء بلا مقابل ..
كانت أحلام كالمسحورة وهى تستجمع كل انتباهها للانصات إليها ..
أخذها الحماس فاخبرتها بقصة حبها لعمرى، أفضت لها بكل شىء
وعن تصوراتها لموقف أبيها تجاه تلك العلاقة إذا علم .. أحست
بالإتيارح يغمر صدرها وهى تستمع لخبرة صديقتها فى مثل تلك
الأمور .. خطفتها دنيا الأمانى من خلال وعود هدى لها، وكيف
ستريها الحياة على حقيقتها عندما يذهبان إلى رحلتها .. ستكون
الفرصة أكثر .. والوقت أفضل .. وعدتها بأشياء كثيرة احستها بقلبها
قبل أن تراها بعينها ولم تبالغ هدى. بل كانت أكثر أمانة مما توقعت
أحلام .. قضيا يومين فقط فى الاسكندرية، وكأنها أغفاءة حلم سعيد..
اكتشفت أحلام أن صديقتها تملك هناك شقة لا تقل فخامة عن شقتها
فى القاهرة .. يومان لم تر النوم خلالهما غير سويغات قليلة .. رأت
وجوها جديدة غير الذين رأتهم فى ضيافة هدى من قبل، استمتعت
بالسباحة وهى ترتدى المايوه ذا اللقطعتين الذى قدمته هدى إليها ..
ضحكت كثيراً من عبث أمواج البحر وهى ترفعها وتحطها، وكذلك
من أيدى الأصدقاء الجدد. بهرتها اضواء النايث كلوب .. شىء آخر
غير الذى رآته فى منزلها .. فكرت أن تقتبس بعض اللديكورات
لتصميمها فى ركن الصلاة بشقتها بالقاهرة. كان قلبها الصغير يلهث
فى سعادة وهى تراقص الواحد تلو الآخر من المجموعة .. شردت
بذهنها فى مقارنات غير عادلة ولا مقبولة، كلما انتبهت لأحدهم
وقارنت بينه وبين عمرو .. تمنّت لو كان لحبيبها تلك البذلة الرائعة

التي يرتديها الشاب الذي يراقصها، وذلك المرح الذي يمتاز به
الثاني، والسيارة البونتيك التي يقودها الثالث .. تمنى كل شيء وكل
الامكانيات لو كانت لدى أغلى ما في حياتها .. لو كانت لدى عمرو
.. ولكن سرعان ما كانت تذوب الأمنى أمام لحظات الواقع الذي
تعيش فيه، وكأنها فقائيع الهذيان التي ما تكاد تطفو على سطح الخيال
حتى تتفجر، وما اسرع الزمن في الأوقات السعيدة .. وكان قرارها
بالعودة، فلقد انتهى اليومان ولكن لم ينته كل شيء، فهناك آمال جديدة
ووعود عديدة، مازالت تحملها الليالى القادمة.

وعلى طريق العودة التفتت هدى إليها وهي تقود سيارتها قائلة:

- كم كانت رحلتنا ظريفة .. أليس كذلك.

سارعت أحلام .. وأجابت بصدق :

- لا تتصورى مدى سعادتى. لن أنسى تلك الأيام طوال حياتى.

ابتسمت هدى بثقة .. ومضت دقائق صمت ثم فاجأتها مسائلة:

- ما رأيك فى هشام وطارق وحاتم.

- جميعهم فى غاية الرقة وكذلك الاناقة.

أحسست بالكلمات تتحجر فى حلقها عندما باغتها هدى بلا

مقدمات :

- بالمناسبة .. صديقك عمرو هل يشبه أحداً من الثلاثة.

اندفعت الدماء إلى رأسها فجأة .. وبصعوبة بالغة حاولت أن
تقتنص ابتسامة فوق شفتيها، رمقتها بنظرة خاطفة ثم انتبهت للطريق
امامها وهي مستسلمة لسلطان الصمت أو للعجز عن الاجابة.
وكان هدى قد ادركت ما يدور بخلد صديقتها فسارعت
بخبيرتها قائلة :

- أسفة .. إذا كنت ذكرتك بمشاكلك.

أومات برأسها في أسى قبل أن تجيبها :

- أبدا بالعكس .. الواقع يفرض نفسه، ومن الصعب
التحايل عليه.

ثم عادت إلى صمتها وهي تقاوم إحساساً بالاختناق كان يضغط
على صدرها دون أن تعرف له سبباً .. أو لم تحاول أن تعرف.

★ ★ ★

كان قبض الظهيرة شديداً وخطوات عمرو تدب على الأرض برشاقة، وهو عائد إلى منزلة مبكراً على غير العادة، بعد يوم عمل مشحون بالاحداث السعيدة .. لقد حقق اليوم انتصاراً جديداً على إحساس اليأس الذى تمادى فى فرض سطوته على وجدانه، حيث استطاع الحصول على موافقة رئيس مجلس إدارة شركته بأن يعمل فترتين متواصلتين ليحقق لنفسه دخلاً يعينه على تحقيق أمله .. كما أنه نجح فى الحصول على تأكيدات بتعيين ابنة عمه بشرى فى الوظيفة الشاغرة بإدارة الحسابات طرفهم، وهو بذلك يحقق ما كان يرجوه منذ زمن بعيد بأن يقدم إلى عمه خدمة صغيرة مقابل العديد من المواقف تجاهه على مر السنوات الطويلة التى مضت .. كان سعيداً وفخوراً بذلك، وسعيداً بموعد لقائه بأحلام الذى سيتم بعد سويعات قليلة.

بدأت خطواته تسرع فى حماس، كأنه يقطع المسافات والزمن معاً .. تمنى لو تجسد كل شيء أمامه تلك اللحظة .. يريد أن يرى بريق الأمل وهو يضىء مقلتي أحلام .. وإن يرى البهجة تتراقص فوق أسارير بشرى .. وأن يتلقى نظرة الرضى والامتنان من عمه.

أقترب من منزله وهو يعايش نشوته مع الآمال التى تنتظره ..
وما كاد يذلف إلى البوابة حتى آفاق من غيبوبة الأمانى عندما
أصطدم برجل غريب منصرفاً دون أن يلتفت إليه.

توقف برهة استجمع شتات واقعة من جديد ثم أسرع إلى شقة
عمه ليخبرهم بما أتى به من أنباء .. لم ينتظر طويلاً أمام الباب،
حيث أنفرج عن زوجة عمه وكأنها كانت فى انتظاره .. وقبل أن
يتفوه بكلمة واحدة، استوقفه حديث عمه مع بشرى وهو يؤنبها على
تسرعها برفض المتقدم إلى خطبتها تحت مبررات واهية يمكن التفاهم
بشأنها، فتقدم خطوة تجاهها عندما انتبه إليه العم قائلاً :

- أهلاً يا عمرو .. لقد جئت مبكراً اليوم .. أليس كذلك.

- نعم يا عمى .. لقد.

قاطعة وهو يشير إلى بشرى قائلاً :

- كنت أتحدث معها بشأن ذلك الشاب الذى تقدم إليها الآن ..
فهو حقاً بالرغم من كل حسناته إلا أنه يحتاج لوقت طويل لكى يكون
مستعداً للزواج .. ولكن الذى أدهشنى هو مبدأ الرفض عندها.

نظر إليه بصرامة اهتزت لها أهداب عمرو كأنه المسئول ..
ثم تساعل متعجباً :

— لست أدرى إلى متى سأتحمل منها ذلك الدلال .. بالمناسبة
أراك كنت تريد أن تقول شيئاً عند حضورك.

ارتعشت شفتاه قبل أن يجيبه قائلاً :

— أجل يا عماء .. جئت استسمحك فى قبول طلبى بأن تعمل
بشرى بالشركة فى إدارة الحسابات .. فلقد استطعت ..

ولكنه توقف عن الحديث أمام تصرف بشرى الغريب، حيث
قفزت فجأة فى مرح، وتحول عبوس وجهها إلى بهجة أثارت
الجميع.. ثم قالت :

— أحقاً يا عمرو .. أحقاً سيمكننى العمل معك .. أقصد هل
وجدت لى وظيفة.

أوما عمرو برأسه .. فقد حال الاضطراب بينه وبين الكلام،
بينما صمت ألع للحظات ثم رفع عينيه تجاهه قائلاً :

— وهل ستكون فى رعايتك.

هدأت نبضات قلبه بعض الشيء وأراد أن يسترسل فى باقى
الأخبار التى لديه :

— لقد وافق رئيس مجلس الإدارة أن أعمل فترتين حتى ..

ولكن العم يقاطعه كأن الأمر لا يعينه قائلاً فى اقتضاب :

- المهم أن تكون تحت رعايتك.

- بالطبع يا عمي.

وترجع عمرو منصرفاً ومبتلعاً حديثه بعد أن تقافزت الأمور
بسرعة على غير ما توقع.

وفى حجرته حاول أن يتخلص من تطفل بعض أفكاره المشتتة
.. ولكنه لم يفلح، حيث ألحت عليه بشرى ونظراتها التي كاد تنطق
بالحديث إليه .. حاول أن يجد لها مضموناً عنده ولكنه أيضاً فشل ..
وكذلك موقف عمه من الشاب المتقدم ورأيه فيه .. استعداد في ذهنه
كلماته بأن الشاب مازال أمامه الطريق طويلاً .. تذكر والد أحلام
وتسلل إلى مخيلته صورته أمام ذلك الموقف، فلن يكون بالتأكيد
أفضل حالاً من ذلك الشاب المتأنق .. هزة شعور بالقلق إذا ما
وضعتة الأقدار في موقف مشابه أمام أسرة أحلام .. كيف سيكون
مصيره بدونها .. وكيف يكون موقفها.

نهض مندفعاً كأنه لدغ من عقرب يختبئ تحت جلده، عندما
استرجع من ذاكرته التغيرات التي طرأت على أحلام، ثم كرر
سؤاله الحائر.

- ترى ماذا سيكون موقفها؟

ولكن سرعان ما هدأت مشاعره عندما تذكر أنه على موعد
معه .. وبدأ يشغل نفسه بهندام ملابسه استعداداً للقاء الحب الكبير.

تحسّس ربطة عنقة بأصابعه وهو يقفز فوق السلم .. شد قامته
مزهواً بشبابه، مختالاً بأحميس السعادة التى تتبض فى قلبه ..
فوجيء ببشرى صاعدة إليه .. لم يتوقف، ولم تتوقف هى .. والنقت
نظرتها معه بابتسامة هائلة :

- كنت صاعدة إليك لأشكرك يا عمرو .

بدا رقيقاً وعطوفاً وهو يجيبها .

- كنت سامنك من هذا .

مسحت وجهه بنظرتها .. شعر بالارتباك أمام لحظة الصمت
التي جمعت بينهما .. حاول أن يفعل شيئاً، فابتسم بلا مناسبة ..
همست برقة .

- أراك متألّفاً .. تبدو كأنك ذاهب إلى حفل .

وجدها فرصة لأن يتجاوزها بضع درجات ثم قال ضاحكاً :

- هذا سر .. سأخبرك بكل شيء فيما بعد .

توقف فجأة كأنه تذكر شيئاً، ألقت إليها .. كانت تطل عليه فى
هدوء .. تردد برهة قبل أن يسألها .

- بشرى .. لماذا رفضت الشاب الذى تقدم لخطبتك .. حقاً

إنك ..

ولكنها تقاطعه وهى تشير إليه بأصبعها محذرة :

- لا .. لا هذا سر .. سوف أخبرك بكل شيء فيما بعد.

وقف حائراً لا يعرف ماذا يقول. ثم تحرك متردداً فى الهبوط .. لم يستطيع مقاومة رغبته فى النظر إلى أعلى بعد كل عدة درجات من السلم يخطوها .. رآها تتابعه وهى فى مكانها إلى أن انتهى عند الباب الخارجى .. رفع رأسه قبل أن يتوارى .. لوحى بيدها مودعة .. بادلهما بإشارة من يده ثم انطلق إلى الطريق.

بدا شاردا وهو يطل من نافذة الأتويسس .. الطريق إلى مدينة المهندسين طويل، والأفكار تتشابك فى رأسه .. حاول أن يتابع الأشياء بعينه .. الأشجار، والأعمدة الكهربائية، والمارة .. و .. اكتشف أن عينيه تخدعانه، وتعكسان إليه صوراً أخرى .. تجمعت كلها فى صورة واحدة .. موقفه الأخير مع بشرى.

وصل إلى حيث يريد .. انطلق يدعو مسرعاً .. الساعة الرابعة والثلاث، لقد سرقه الوقت عن مواعده .. دخل الكازينو وهو لاهث يبحث بعينه فى كل مكان عن أحلام .. لم يجدها .. تشاءم وهو يشعر بقلبه يهوى نادماً .. همس فى نفسه :

.. إذن لقد انصرفت بعد تأخرى.

لعن حظه العائر وهو يجلس وراء مائدة متطرفة، تخرج من أن يسأل "الجرسون" عنها .. إحساسه بالنم كاد يبيكه، رفع رأسه

للسماء مستعطفاً .. وما كاد يهبط ببصره إلى الأرض حتى انتفض واقفاً .. رآها تعدو نحوه مسرعة، ترك مكانه مندفعاً إليها .. بدا عليها القلق والاضطراب وهي تمسك بكفيه قائلة :

- أسفة يا عمرو .. لقد تأخرت عليك كثيراً .. كنت منشغلة مع أمي في ترتيب بعض الأمور.

أزدد ريقه مهموماً ..

جذبتَه إلى المائدة من جديد ثم قالت بهدوء وهي تجلس :

- كنت متأكدة بأنك ستنتظرني

وبلا تحمس قال متسائلاً :

- لماذا ؟

سارعت تجيبه وهي تداعبه :

- على الأقل يكفى عناء الأتوبيس.

لم يبتسم .. فاردفت :

- وأنت كيف حالك يا عمرو.

وكأنه تذكر حاله .. وبأن عليه أن يكون سعيداً فانفرجت

أساريره وهو يقول متفائلاً :

- عندى لك أنباء ستسرين لها. وبدأ يسرد عليها كل شيء وكيف سيتضاعف دخله الفترة المقبلة .. وبأنه مستعد لأن ينفى حياته من أجلها ومن أجل حبهما الكبير، وكيف سيختصر الزمن بهذه الطريقة وبأنه سصبح قريباً مستعداً لمواجهة أبيها. كانت تتابع حركة شفثيه وإشارات يده المنفعلة وهى شاردة .. إحساس ما أقنم وجدانها فجأة، لم تستطع أن تخفى نظرة عينيها الملولة وكأنها لا تريد أن تسمع شيئاً بقدر ما تريده بجانبها .. أو كأنها اكتشفت فجأة بأنها تحبه بقلبها فقط أما عقلها فهو بعيداً جداً.

أنتهى من حديثه ولم تنته هى من شرودها، تصورها حالمة مع آمال المستقبل .. ازداد سعادة وهو ينبهها قائلاً :

- هه .. ما قولك يا حبيبتي فى تلك الأخبار.

اضطربت لسؤاله، فهى لم تسمع أغلب حديثه الحالم .. ابتسمت فى فتور ثم قالت :

- وهل سيستمر هذا الحال طويلاً.

- ماذا تقصدين يا أحلام.

تداركت وهى تجيبه :

- لا شيء .. أقصد ستظل تعمل فترتين إلى متى.

ظل محتفظاً بتفاوله وهو يقول مؤكداً :

- حسبماً أريد يا عزيزتى .. فأنا علاقتى برئيس مجلس الإدارة
جيدة ..

ولكنها تفاجئه كالصاعقة قائلة :

- لماذا لا تعمل فى الأعمال الحرة يا عمرو.

صمت للحظة منزعاً ثم قال مستفسراً :

- ماذا قلت يا أحلام ؟

- أقول لماذا لاتعمل فى الأعمال الحرة .. فهى تدر أرباحاً وفيرة

وهنا لم يتمالك توازنه وراح يقهقه من قلبه حتى بدا وكأنه
أصيب بنوبة من الهستيريا .

ثم قال وهو يسترد أنفاسه :

- الأمر ليس بهذه البساطة يا حبيبتى لابد من المال.

غابت مع فكرها .. تذكرت الثلاثة الذين التقت بهم فى
الاسكندرية .. لمعت فى عينيها الساعات، والميداليات الذهبية ..
شعرت بنعومة المقعد فى السيارة البونتيك ورائحة العطر .. سيطر
الاكتئاب بوضوح عليها ولم تغلح فى اخفائه .. كان يراقب نبول
نظرتها .. كاد أن يجن وهو يسألها :

- ماذا بك يا حبيبتى.

تتهددت فى ألم وهى تجيبه :

- أبدأ .. ولكنى أفكر كيف سنلتقى بعد اليوم .. فأنت ستكون دائماً فى عمالك.

شعر بالاحباط وكأنه قد ارتكب ذنباً لقبوله العمل فترتين .. ولكن سرعان ما استجاب لفكرة، رأى فيها الخلاص من المأزق، وقال بصوت مرتفع :

- وجدتها .. سنلتقى كل أسبوع فى يوم أجازتى .. سننقضى اليوم بأكمله معاً.

ومرة أخرى يصمت عاجزاً أمام قولها :

- لا أستطيع .. فأجازتك توافق عطلة أبى، وهو لا يزال كسابق عهده معى، بالرغم من كل شىء.

- ولكنه يسمح لك بالسفر وحدك مع جارتك.

لم تتردد وهى تؤكد قائلة :

- أنه يثق فيها .. و

قال منزعاً :

- كيف .. ؟ أيتق فى إنسانة كان ينعته بأفطع الصفات.

بدت وكأنها تنهى المناقشة :

— لم يكن محقاً على كل حال، وأمي أقنعت به خطئه ..

صمتت برهة ثم استطردت :

— ثم إن هدى إنسانة لا غبار عليها.

حاول أن يتلطف أمام حديثها :

— أنا لم أقل شيئاً عنها .. ولكن ..

ابتلع كلماته عندما وقفت فجأة قائلة :

— يجب أن أنصرف الآن يا عمرو .. لقد تأخرت كثيراً.

بدا الطريق طويلاً وهما يسيران في صمت .. ثم فاجأها قائلاً:

— كيف سارك يا أحلام.

ضمت شفيتها بإشارة تتم عن عجزها في التصرف .. أثارة

سلبيتها وهو يقول :

— إذن ليس أمامي غير حل واحد

— ما هو يا عمرو.

— سأترك العمل الإضافي.

لم تستطع إخفاء إبتسامة السخرية على شفيتها .. ثم همست

— وتظل هكذا إلى الأبد .. أنت تحلم وأنا أحلم.

امتنع وجهه فى بؤس وهو يقول :

— وماذا عسائ أن أفعل لقد ..

قاطعته ببرود قائلة :

— لى فكرة.

— هاتىها أرجوك.

شعر بكلماتها تشق صدره قبل أننيه وهى تقترح قائلة :

— ما رأيك لو اتفقنا على يوم نلتقى فيه عند هدى صديقتى

— ماذا ؟

لم تضطرب لاندھاشه وهى تسترسل :

— اختر الأيام التى تناسبك فهى لن تمنع ويمكننا أيضاً أن

نلتقى بعد انتهاء مواعيد عملك فى المساء.

وقبل أن يتفوه بحرف واحد لاحقته قائلة فى تحد :

— هذا .. إذا كنت ترغب فى رؤيتى.

لم تغلج كل محاوراته معها .. اشتد وتلطف .. تقلصت أسارير وجهه وترأخت، اعترض فى تجبر وهذا فى منلة، حذر وتهاون، تحدث كثيراً وصمت طويلاً، هدد بالفراق وتلله فى حبها .. حاول أن يعدد لها عواقب تلك التصرفات، هالة صمتها وجراتها .. كانت قوية

فى إصرارها، عذفة فى قرارها .. لا ثالث بىن أمرىن أما الفراق
أو اللقاء، وعلفه وحده إتحاذ ما براه.

وقف مستسلماً وهو يستمع إلى تفاصيل اللقاء، وكيف يسعى
للتستر بقدر الإمكان وهو يتسلل إلى شقة صديقتها، وأن الأمر أبسط
بكثير مما يتوقع، وبأن اللالى القادمة ستحمل لهما لقاءات هائلة.

أرتعدت شفتاه وهو يتساعل بصوت منخفض :

— متى أراك إذن.

قالت وكأنها تكافئه :

— سأنتظرك غداً فى العاشرة مساء.

لم يجدها أمامه، انطلقت تعدو مسرعة . وهو يقف يتابعها فى
شلل واندعاش .. تركته دون أن تلتفت للوراء وكأنها توحى إليه بأن
لا شىء فى جعبتها غير الذى سمعه منها، وهى لم تتعمد ذلك، لقد
قالت كلمتها وأنشغلت بغيرها، فالشمس غابت وهناك أمور باتت أكثر
أهمية بالنسبة لها تحتاج لتواجدها.

وما كادت تهبط السيارة الأجرة التى أوصلتها إلى المنزل حتى
أنتهت من درجات السلم فى ثوان قليلة .. أتجهت مباشرة إلى شقة
هدى، ولم يحتج الأمر منها أكثر من دقيقة .. أبلغتها بما يمكن أن
يحدث غداً .. شعرت بإرتياح يغمر صدرها وهى تتلقى كلمات

الترحاب من جارتها، ولكن سرعان ما أكتأبت عندما دخلت إلى شقتها.. أحسست بالتوتر يخيم على أسرتها الصغيرة، كان والدها متجهماً ووالدتها متحفزة .. انتفض قلبها هلعاً وهي تهمس في نفسها.

.. لابد أن هذا الاجتماع خاص بى .

أخذتها الدهشة عندما لم ينتبها إلى وجودها .. كان حديثهما يطويه الغضب أقرب منه للعتاب .. الأب يلوم زوجته على المعاملة السيئة التى بدرت منها تجاه أقاربه، والأم تستتكر بعض التلميحات التى صدرت منهن. أطمأنت أحلام بأن الأمر بعيد عنها .. وجدت نفسها أكثر جرأة وثقة فى أن تتدخل، حاولت أن تقول شيئاً .. ولكن فارس ينهرها وهو فى هياجه، والأم تتصدى له بقوة لذلك التصرف كانت المرة الأولى التى ترى فيها والدها وهو يرضخ لثورة الأم، حلاً لها أن تستفيد من الفرصة إلى آخرها .. أسرع إلى غرفتها تنتحب فى دلال، ترمى إلى مسامعها وابل السخط الذى صبته أمها على أبيها .. تملكها الذهول .. فوجئت بأبيها يطرق بابها، يتقدم نحوها معتزلاً برفق .. وجدت نفسها تبكى دون إرادة وبلا مشاعر .. أنسحبت الدماء من وجهه هلعاً عليها وأمطرها بقبلاته وهو يهدد فى مشاعرها .. حاول أن يستميلها قائلاً :

— أذهبى إلى صديقتك هدى .. ربما تكونين فى حاجة للتغيير.

دأبت النشوة وجدانها وهى تجيبه ببراءة .

- لا .. لن أذهب .. أنا أريد النوم فقط.

- لن أتركك إلا إذا صفحت عني.

.. يا إلهي ماذا حدث في حياة أبي ذلك الجبل العنيد يقف
هكذا أمامي.

التفتت إليه بخنان باسمه :

- حقاً يا أبي أنا متعبة سأخلد للنوم بعد ما أرى جدى.

وبحركة طفولية ردد فرحاً كأنه تذكر فجأة بأن هناك إنساناً
رابعاً يعيش بينهم وقد يكون عنده الخلاص من هذا المأزق :

- نعم .. نعم .. عليك بالذهاب إلى جدك ستجدينه فى غرفته.

اتجهت بهدوء إلى غرفة جدّها ولم تغفل وهى فى طريقها أن
تتبادل مع والدتها نظرة الرضى.

كان الجد قابلاً فى مكانه أمام الشرفة كعادته .. التفت إليها
عندما شعر بوجودها قائلاً قبل أن تتطرق :

- كيف حالك يا ابنتى.

- بخير يا جدى .. بخير.

لم تجد ما تقوله غير ذلك، وهو يرمقها بنظرة صامتة، ولكنها
ملينة بالمعانى الغامضة فتراجعت قائلة :

— أنعمت مساء يا جدى

وتركته إلى غرفتها .. لم يبدر منه حرف، غير أنه أو مابراًسه
عدة مرات وكأنه يتوقع منها ذلك.

كان الجد أمين ساخطاً على حياتها الجديدة والغريبة، ساخراً
من كل المظاهر الفاسدة، دائم التحفز والتثمر.. لم يدع فرصة إلا
واجتهد فى استغلالها من أجل التعبير عنه رفضه .. حاول كثيراً أن
يستعيدهم لخطيرة الانتماء والعودة بهم إلى أغوار أصالتهم وواقعهم
الحقيقى .. كانت فتحة أكثرهم صلابة ورفضاً لتصرفاته، اعتادت
على الشكوى منه كلما أتحت لها فرصة الانفراد بزوجها حتى هيات
لها الظروف لتسحب فى قطيعة صامئة داخل المنزل، وذلك منذ
اليوم الذى دعت فيه للغذاء بينهم وقدمت إليه طبقاً فى تودد قائلة :

— ما رأيك يا عمى فى الكاليلونى هذا .. حاول تذوقه قبل
الشاتوبريان.

يومها أبتسم الجد ساخراً وهو ينظر إلى فارس قائلاً :

— رحمة الله على أمك يا ولدى كانت تسمى الكاليلونى بسذاجة
عجيبة الفطائر باللحم المفروم ناهيك عن الشاتوبريان كانت المسكينة
بجهالة تسمية شرائح اللحم المشوى.

واعتبرت فتحة أن الإهانة موجهة لشخصها فباتت لا تحدّثه
إلا للضرورة ولا تدعوه إلا للمجاملة ولا تنفرد معه إلا مصادفة، ولهذا

هلل فارس عندما أبدت ابنته رغبتها فى التوجه إلى جدها ولكنه اضطرب ثانية عندما وجدها تتسجب هى الأخرى مسرعة إلى غرفتها، وتوقع من أبيه أن يكون قد أطلق سهام الغضب على أحلام مما دفعها للهروب من أمامه، ولم يستطع أن يصمد طويلاً أمام نظرات فتحية وهى تحته على معرفة ما حدث فاتجه بخطى بطيئة إلى غرفة أبيه وهو يجاهد فى أن يخفى اضطرابه أمامه ثم قال كالهمس :

— ألا تأتى لمجلسنا يا أبى.

— لبيتك تجلس معى .. فأننا أريد محادثتك .. هل تسمح ظروفيك.

أخذته المفاجأة .. بدت منه التفاتة إلى زوجته ثم تقدم نحوه متردداً :

— بالطبع يا أبى فأننا فى شوق لحديثك.

استدار الجد فى جلسته ليواجهه ثم قال بحنان :

— أراك تنقطع كثيراً عن عملك يا فارس.

— فى الحقيقة يا أبى .. أنا أعيش فترة قلق من حياتى .. فأننا بصدد اتخاذ قرار هام ولا أعرف أن كنت محقاً فيه أم لا.

راعتة حيرة ابنه الوحيد وسارع متلهفاً بقوله :

— ماذا بك يا ابنى.

— أنا أفكر فى الاستقالة .. و ..

قاطععه مذعوراً فى نظرة شعر بها تحرقه :

— ماذا تقول ؟ هل جننت .. تستقيل بعد هذا العمر.

— يا أبى الحياة فرص .. وأنا أمامى فرصة سأندم عليها طويلاً لو فاتتني.

نهض مرتكزاً على عصاه وهو لا يزال يحتفظ بثورته :

— أى فرصة تلك التى تجعلك تقدم على ذلك للتصرف الأهوج.

— سأسافر أنا وفتحية وأحلام للخارج.

شعر بالحرج لاسقاطه أباه من حساباته فاردف متداركاً :

— يمكننا أن نعيش جميعاً هناك والحياة ستحلو لك يا أبى فى هذه البلاد المتقدمة.

تدخل صارخاً :

— كفى .. كفى هراء .. لقد فقدت عقلك يا فارس ... ولسوف تدفع الثمن.

— يا أبى إنها مجرد فكرة .. ولقد ..

ولكنه أمسك عن الكلام عندما استدار أبوه إلى شرفته وجلس
كمادته يكتّم غيظه ضاغطاً على رأس أبى الهول وهو يفرّكها بين
أصابعه وكأنه يسعى لإصابتها بالدوار حتى لا ترى ما كان من أحفاده.

ولم يجد فارس غير أن ينسحب هو الآخر بهدوء وهو يهمس
متلعثماً :

— أنعمت مساء يا أبى ..

وما كاد ينصرف حتى لاحظ اقتراب فتحية وأدرك إنها قد
سمعت كل شيء .. فسكن برهة يستطلع فى عينيها تأثير ذلك
الحديث، إلا أنه فوجئ بابتسامة مريحة تحمل معانى كثيرة يدركها
.. ومدى تأثيرها عليه .. فأشار لها برأسه معبراً عن حيرته وهو
يقول :

— أرايت .. لقد ..

ولكنها استوقفته بإشارة من يدها .. واقتربت منه هامسة بدلال:

— لا تحزن يا حبيبي .. فانت تعلم حكم السن.

أوما موافقاً وهو منكس الرأس، ثم اتجه إلى مقعده جالساً فى
إعياء، بينما تركته فتحية لدقائق قليلة ثم عادت وهى ترتدى قميص
نومها بلونه الأحمر المفضل إليه، ونبت منه وهى تمد إليه بكأس
عكست معبات الثلج التى بداخله الضوء الخافت الذى أحاطته به
وقالت :

— يا ترى إلى متى سيظل فارسي غاضباً.

أرسمت ابتسامة ذابلة فوق شفثيه وهو يتناول الكأس من يدها،
ثم حاول أن يجلسها بجواره ولكنها أمسكت بكفه ونهضت به وهي
تتمايل برقّة :

— لا .. لا اليوم لنا يا عزيزى.

ثم سحبته خلفها فى اتجاه غرفة النوم، وهو يتبعها مستسلماً لها
ولنظرة عينيه التى راحت تسبح فوق قوامها المتماسك ثم همس فى
نفسه مردداً :

.. أجل فالיום لنا .

★ ★ ★

الليلة باردة .. ولسعة الصقيع تلفح وجه عمرو، كأنها تصفعه
بسياط الحقيقة .. لعة يوقظ ذلك الضمير الراقد فى غيبوبته .. كان
يسير بتلك وإحباط .. حاول كثيراً أن يضع نفسه بين عذر تقبله
أحلام، لا يريد أن يذهب، لا يتصور أن يحدث ذلك .. تمنى لو
انفجرت السحب فوق رأسه لتصب سيولها وتعوقة عن المسير ولكنها
ظلت ملبدة غائمة فى عناد لا ترغب فى الانصهار .. تفرس فى
الوجوه لعله يجد من يتعلل به، ولكنهم جميعاً غرباء .. دأبهم
إحساس الاشمئزاز .. و .. الضعف.

خطواته مدمرة، شعر بها تحطم فى نفسه كل شىء .. أخلاقه
ومبادئه، وكل إحساس بالجمال والصدق .. إحسها تمزق شرايين
الانتماء التى تصله بأهله وقريته .. بدا غريباً حتى عن نفسه.

اقترب من حديقة المنزل بالهندسين .. أختلس نظرة إلى ساعته
.. التاسعة والنصف مساء .. فكر .. فى العودة، السكون وظلمة
المنطقة قضياً على تردده .. استمرّد الفأ إلى الداخل .. كاد يسمع
نبضات قلبه المضطرب .. تحمس بقدمه درجات السلم، أمتنع عن
إضاءة النور، كأنه يتوقع أن يكون هناك من يتربص له .. أفزعته
مواء قطّة فى الظلام الحالّك، توقف فى ترقب .. تصورها تلعنّه ..

تراجع متعثراً إلى الخلف، كأنه تلقى لكمة قاضية على فكه، عندما اقترب من لوحة صفراء صغيرة. قرأ ما كتب عليها، فارس أمين .. توهم أنه يراه .. أسرع يضغط بأصبع مرتعش فوق جرس الشقة المقابلة، استجمع كل حواسه في أذنيه .. لاشيء .. صمت قاتل، طواه إحساس بأنه يقف على أبواب مقبرة مهجورة .. لم يطل انتظاره .. ظهرت هدى يسبقها عطرها الأخاذ .. تأملته في نظرة فاحصة .. ومدرية.

لم يجد ما يتفوه به ، سكن مبهوراً ومرتبكاً .. بدت في عينيه كملك رقيق خرج إليه من طاقة في بطن السماء .. تساءلت في همسة هائلة :

— من ...

— أنا ... عمرو.

كادت تسحقه لحظة الصمت التي سبقت إجابتها.

— أهلاً أستاذ عمرو .. تفضل.

كأنه في حلم .. بخطوة واحدة انتقل من واقع إلى آخر .. سار خلفها وهو مسلوب القدرة حتى عن التفكير، لم يستطيع أن يقاوم رغبته في أن يتلفت يمنة ويسرة، كأنه يدخل مدينة مسحورة كل ما فيها عجيب .. الأضواء السرية بألوانها المتداخلة واللوحات التي تكاد أن تنطق أمامه، الموسيقى الحاملة التي تتساب مع مياه النافورة الرائعة التي تتوسط الردهة.

جلس بإشارة منها .. وقابلته فى جلستها .. ثم قالت :
- سأنتظر قليلا ثم استدعى لك أحلام .. خوفاً من أن يكون قد
رآك أحد .

أدرك خطورة موقفه .. وابتسم مستسلماً، بينما نهضت هى قائلة :
- ما رأيك فى شراب سريع .. نقاوم به هذا الصقيع .
رفع رأسه إليها .. ثم قال وكأنه مضطر للإجابة :
- أن كان طلبى لا يسبب لك قلقاً .. فانا أفضل الشاى .

ضحكت من قلبها .. وجدها فرصة لتأملها .. كانت رائعة،
جميلة واثيقة .. ناضجة ومثيرة .. انتبه إلى كلماتها وهى تخطو
مراجعة:

- لكل وقت مشروبه يا عزيزى .
لم تغب عنه طويلاً .. عادت وهى تمد إليه بكاسه قائلة :
- سأشرب معك نخب تعارفنا .
وقف وهو يحاول أن يخفى اضطرابه :
- لم أشربه من قبل أبداً .
دنت منه .. كأنها تحذره بعطرها .
- سيكون كرم منك أن تشربه لأول مرة .. ومعى .

أخذه من يدها .. بدا كالقرد المسلى، يقلدها فى كل شىء حتى لا يبدو متخلفاً .. كلما رشت من كأسها فعل فعلتها .. حتى السجارة كلما اشعلت واحدة امتدت يده ليأخذ مثلها .. تكررت منها كلمات الترحيب وتعدد معها امتلاء الكؤوس .. تسلفت به بعيداً عن توتره، فى رحلة حلالة للتعارف .. ثرثر كثيراً عن نفسه وعن علاقته بأحلام .. وكيف التقيا لأول مرة وكيف دغدغ الحب مشاعرهما .. وهى تتأمله فى هدوء مثير .. لا تتكلم إلا لكى لكى تحثه على مواصلة الحديث .. ولا تتحرك من أمامه إلا لتملأ له كأساً آخر .. ولا تبعد عيناها عنه إلا عندما يستسلم لجرأته ويتفحصها بنظرة أكثر جرأة.

شعر بالخلج عندما فاجأته قائلة :

- انتظرنى دقيقة .. سأبلغ أحلام بوجودك.

كأنه تذكر السبب لوجوده فى هذا المكان .. فأوماً برأسه التى أثقلت على جفونه وهو ينظر فى ببلاهة حتى . توارت عنه.

إحساسه بالوحدة جعله يستعيد بعضاً من إترانه .. جاهد فى أن يتأهب لرؤية فانتته الحبيبة، وانتعشت نبضات قلبه مع صورة فى جلسة هادئة بينه وبين أحلام.

انتفض واقفاً عندما ظهرت أمامه أحلام وهى تسعى إليه بقميص نومها .. أسرع نحوها غير مبال بشىء غير رغبته فى تناول كفها بشوق متأجج .. وبادرها :

— أحلام .. لا أصدق ما يحدث حولي.

التهبت وجنتاها بحمرة الخجل ورهبة الموقف .. وهي تردد :

— يا حبيبي ياعمرؤ .. كنت أخشى الا تحضر .. لا تتصور
مدى سعادتي .. فأنا ..

قاطعتها هدى قائلة :

— كفى .. كفى .. لايزال الوقت متسعاً لحديث الحب بينكما.

التفتت إليها أحلام مبتسمة :

— لا أعتقد .. أبى مستيقظ فى مكتبة ينهى بعض أعمال
الترجمة .. وأخشى أن تحضر أمى لتؤنس وحدتها .. فتراك.

بدا الاحباط على عمرو وهو يقول :

— إذن .. من الأفضل أن انصرف الآن.

سارعت هدى قائلة وهي ترمقه بنظرة خاطفة :

— هكذا إذن ...

ولكن أحلام تحسم الموقف وهي فى اضطربها.

— لا أرجوك .. انتظر نصف ساعة أخرى .. فربما أستطيع
الحضور بوسيلة أخرى.

قال متلهفاً :

— وأن لم تستطعى ..

شعر بأنفاسها تفتح شفتيه وهى تقترب منه أكثر :

— إن لم استطع .. سارك بعد غد .. هنا .. سيكون فى بيتنا
حفلا لاستقبال بعض الزوار .. وطبيعى ستكون أمى منشغلة بهم.

سحب نظرتيه على جسدها .. اكتشف لأول مرة إنها نحيفة
أكثر من اللازم، وبلا إرادة تحول بعينه فوق قوام هدى الناضج
الممشوق وكأنه يعقد مقارنة حاسمة بنظرة واحدة .. وبدء فطرى
استجابته هدى لتلك النظرة، بينما واصلت أحلام وهى لا تزال فى
إرتباكها :

— ماذا قررت يا حبيبى.

— سأنتظر ... سأنتظر يا غالية.

فوجيء بها تقبله قبلة خاطفة كالطفلة التى سعدت بقطعة من
الحلوى، ثم التفقت إلى هدى ممثلة.

— لن أنسى لك هذا الصنيع ما حييت يا صديقتى

ثم هزلت مسرعة .. وهو يتابعها بنظرة تأكد من خلالها
بأنها أكثر نحافة مما تصور.

أتجه إلى مجلسه الأول قبل أن تنصرف أحلام، كانت خطواته
أكثر جرأة هذه المرة .. وما كاد يجلس فوق معقده حتى صاحبت به
هدى بعد أن ودعت صديقتها :

.. انتظر ..

اقتربت منه فى هدوء .. ثم قالت :

.. ألم تشعر بالملل .. ما رأيك لو جلسنا فى مكان آخر .

وقف مطيعاً دون أن يصدر منه تعليق .. فتناولت يده وسحبته وراءها إلى ركن آخر فى نهاية الردهة الواسعة .. شعر كأنه يتقدم نحو مغارة يحيط بها الغموض ، تسال من داخلها أضواء خافتة ترتعش مع نغمات أكثر هدوءاً.

و .. التفتت إليه قائلة :

— ما رأيك لو جلسنا هنا .. انتظرني حتى أحضر كؤوسنا.

فوجئت به يلحق بها قائلاً :

.. سأعاونك.

— لا .. لا .. استرح أنت.

ثم ركزت نظرتها إلى عينيه وارتفت :

— ربما أحتاج إلى معونتك فى أشياء أخرى.

تكرر إختفاؤها من أمامه عدة مرات وهى تعد التجهيزات اللازمة لجلستهما، ولكنها فى المرة الأخيرة توارت عن نظره ولم تعد .. راوده القلق قليلاً حاول التخلص منه من خلال عدة كؤوس فى جوفه .. أرتاب فى أن يكون الخيال قد بدأ يلعب برأسه وجعله يرى

تخيالات أمامه فى صورة حورية فاتنة تختال برداء شفاف بلون
الموج.. ادرك أنه لا يحلم .. كانت حقيقة .. بدت هدى فى صورتها
الجديدة بعد ما بدلت ملابسها وكأنها نجمة ضلّت طريقها فى السماء
وهبطت أمامه على أرض الواقع .. كل شىء فيها يسبقه بريق يأخذ
الأبصار .. وعند اقترابها منه أكثر .. أحس بأنها قد سلبت عقله أيضاً
لم يستطع أن يوقف طوفان رغباته فى التثقل بنظرة على جسدها
المشكوف أمامه.

لم تهتم كثيراً لوقاحتها الغريبة وجلست بالقرب منه وهى تهمس:

- هل تأخرت عليك.

- حديثى عن نفسك.

أطلقت زفرة طويلة من صدرها شعر بها تستقر على وجهه
وهى تذوب فى رائحة الأئونة الفياضة .. ثم قالت :

- أنا إنسانة عادية .. أعيش فقط .. بلا ماضٍ أحزن عليه، ولا
حاضر أخاف منه .. تزوجت وطلقت .. لى معارف كثيرة، ولا
صديق واحد .. انفق أموالاً كثيرة دون أن أشعر بالاستمتاع بها ..
يئست من العثور على الحب .. فتوقفت عن البحث عنه .. تربت
نفسى ألا أقدم على شىء إلا إذا كنت أرغب فيه.

ثم دنت برأسها نحوه واستطردت :

- ودائماً ما أحصل عليه.

— أنت واقعة تماماً من نفسك .. ألا تشعرين قط بالخوف.

ابتسمت فى دلال قبل أن تجيب :

— أشعر به فى حالة واحدة .. أن أفقد شيئاً أرغب فيه.

— أنت غريبة حقاً.

— أبدأ .. الغريب أن نحرم أنفسنا دون وجه حق من أشياء

ستشعرنا بالمتعة.

تهدد فى حسرة ثم قال :

— الظروف تختلف من إنسان إلى آخر .. فليس كل ما يرغبه

الإنسان يمكن أن يحققه.

عبثت بأصابعها فى شعره وهى تردد :

— المهم أن ترغب .. هناك الكثيرون الذين يدفنون رؤوسهم

كالنعام ليهربوا من الحقيقة والواقع، بالرغم من أن فى استطاعتهم أن

يحققوا كل شيء .. بشرط أن يرغبوا .. يرغبوا فقط.

احسست بالغیظ يضغط على صدرها وهى تقول :

— خذى أحلام مثلاً أنها ...

قاطعته بدهاء :

— ماذا عن أحلام .. فهى عندما ارادت حققت ما تريد ..

وأحضرتك إلى هنا.

— الظروف حتمت عليها أن ..

قاطعته مرة أخرى بحدة :

— وأين كانت الظروف فى السابق .. فلا شيء تبدل .. غير
إنك هنا فقط .. لأنها رغبت فى ذلك، وأنت أيضاً رغبت هذا.

سيطر الصمت عليهما .. وراح فى غفوة مع نفسه، كأنه يعيد
حساباته مسترجعاً كل الأحداث الماضية لعله يجد فى فكره ما يجعله
يجيبها .. وشعر بحديثها يتمكن من مشاعره تماماً متغلغلاً فى أعماقه
وكيانه، وجد نفسه سعيداً بنبضات الجراة التى بدأت تعلن عن نفسها
فى جوف عروقه.

أدار وجهه نحوها مستسلماً لدفء أنفاسها القريبة منه، والتقت
عيناه بنظرتها فى حديث صامت لم يقطعه غير همستها المرتجفة.

— هل ترغب فى شيء.

لم يجبها .. والتقى معها فى قبلة طويلة .. منحته فيها من
خبرة شفتيها وعذوبتها ما أفقده صوابه .. لحظات ماتت عندها كل
الذكريات .. بات مثلها بلا ماض وأيضاً بلا .. أحلام.

ضمها إلى صدره بقوة كأنه يدفنها فى كيانه وهو غارق بين
شفتيها، ولكنه فجأة يدرك أنه على حق .. فليس كل ما يرغبه الإنسان
يمكن أن يحققه، وذلك عندما انسحبت مرة واحدة من بين ذراعية
وهي تستعيد أنفاسها قائلة :

— كفى ..

دفن إحساسه بالخلج في عدة كؤوس متتالية، جعلته مهترأ في وقفته .. وزاد من دواره ملاحظتها وهي تقول :

— يا إلهي .. الساعة الثالثة صباحاً.

كاد أن يسقط مترنحاً عندما حاول أن يخطو إلى غير هدف.
ولكنها لحقت به وأجلسته ثانية .. ثم قالت :

— أنتظر لحظة .. سأستعد لأوصلك بسيارتى.

نهض منزعجاً .. حاول أن يتقدم بعدة خطوات ولكنه فشل ..
بدا كالغصن اللين الذى تعبت به رياح ليلة عاصفة.

أسرعت إلى غرفتها وهي تردد :

— لن أتأخر عنك .

ظهرت مرة أخرى وهي مستترة تحت معطف ثقيل، ثم تابعت
نراعه وهي تحثه على الصمت حتى لا يشعر بهما أحد.

كانت السيارة تقطع الطريق فى سرعة خارقة وهو يستقبل
على وجهه اللفحات الباردة من النافذة .. وبين اللحظة والآخر يختلس
نظرة نحوها وهي تقود السيارة دون أن تلتفت نحوه .. حاول أن يقول
شيئاً ولكنه توقف عندما شعر بعدم استجابتها للحديث .. كان يرشدها
إلى الطريق إلى منزله وهي تتحرك حسب اتجاهاته دون أن تنبس

بكلمة واحدة .. وعند إقترابه من ميدان العباسية أشار إليها بالتوقف، وقبل أن يقول شيئاً سارعت هي قائلة بصوت حنون سرى دفته في كيانه :

— لا تنسى .. أن نتسى.

أوما برأسه المترنحة، فترقت على شفيتها ابتسامة هادئة .. وقالت:

— إذا تحقق هذا .. فساكون سعيدة جداً أن أراك حسب موعدك مع أحلام.

وانطلقت بسيارتها متوارية داخل ظلمة الليل.

بينما بدأ عمرو يخطو بخطوات متعرجة وهو لا يكاد يرى شيئاً أمامه غير صور باهتة لأحداث ليلة من ليالي الأساطير.

اندلف إلى الشارع المؤدى إلى منزله .. الريح شديدة تعصف بالأشياء فوق الأرض. المكان مظلم في سكون موحش .. حاول أن يسرع من خطواته، كاد أن يسقط، عند البوابة رفع رأسه إلى أعلى .. شعر بالإضطراب .. أدرك أن بشرى تنتظره، لا مناص إذن من المواجهة .. تسلل إلى نفسه إحساس بالندم .. ما كان يجب أن يتأخر إلى هذا الوقت .. حتماً ستخبر عمه .. بماذا سيتعلل.

بدأ يصعد درجات السلم في تودة غير مصطنعة، فقدماء خائفة القوى .. سمع حشرجة الباب وهو يفتح من أعلى، تصورها حشرجة

فى صدره .. أقترب من الدور الذى تقف عنده بشرى، وجدها تنتظره
فى ذهل .. ثم أسرعت إليه عندما لاحظت أعياءه وهمست فى لهفة
صادقة :

— ماذا بك يا عمرو .. ما الذى.

قاطعها وهو يواصل صعوده فى مكابرة :

— لاشيء .. لاشيء ..

وما كاد أن يتجاوزها بدرجات قليلة حتى تعثرت قدماه فسقط
بكل ثقله المتهالك على الأرض .. لحقت به فى فزع وعاونته على
الوقوف وهو متكئ على كتفها وعاود الصعود وهو يجاهد بكل
الوسائل لكى لا تلاحظ عليه أمراً يكشفه.

دخلاً غرفته فى النهاية، وأجلسته على الفراش وهو منكس
الرأس، غائب فى دوامة مع أفكاره المشتتة .. كان كالحالم.

وقفت لحظة أمامه تراقبه، بدأ عليها الانزعاج بوضوح، وكأنها
تبينت حقيقة أمره والسبب فى حالته تلك .. وفى أصرار تساعلت :

— أين كنت يا عمرو.

أدار وجهه تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار كأنه يخفى
عينيه عنها .. ثم أجاب :

— كنت عند صديق لى.

— كدت أجن لتأخرك هذا .. أحمد الله إن عمك سافر اليوم
إلى البلد.

نظر إليها بعينين مرهقتين .. تبين صورتها بصعوبة كبيرة ..
ثم تساءل :

— ما الذى جعلك تنتظرى إلى تلك الساعة المتأخرة.

— أنت تعلم أن لا أحد يجعلنى أنتظر حتى هذا الوقت سواك.

وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة استطردت متسائلة :

— لست أدرى كيف ستذهب إلى عمك وأنت فى هذه الحالة ..
سأطلب لك أجازة وأنا هناك ..

قاطعها وهو يغالب الإرهاق :

— لا .. لا .. كل ما أرجوه منك أن توظفينى معك
لنذهب سوياً.

— إذن .. هيا للنوم ولا داعى لأن تبدل ملابسك.

وضغطت على كتفيه ليستلقى على الفراش، وسحبت فوقه
الغطاء حتى أسفل ذقنه ثم قالت بحنان :

— تصبح على خير

وكان الدنيا قد قلبت رأساً على عقب .. وفي ثوان تأججت في صدره رغبات كالبراكين، وتذكر كلمات هدى وهي تسأله عما يرغب .. اقتربت صورتها تماماً .. أو تصورها أنها هي .. وفجأة جذب بشرى من يدها بقوة، غير من وقفها إلى جواره، وراح يمطرها بقبلات عنيفة وهي تردد في ذهول :

— ما الذى تفعله يا عمرو

— وكأنه قد فقد عقله تماماً، لم يعد ينصت إلى شيء سوى نداء شهوته الجامحة .. بدا كالوحش الجائع الذى طال تربصه لفريسته وأخذ يفتك بها ليطفئ لهيب حرمانه.

انتبه على صفعة قوية كادت أن تغرق عينيه بضربة عنيفة من يد بشرى التى قفزت من جواره هاربة، وتاركة صدى صوتها وهي تردد في بكاء أقرب إلى النحيب :

— مستحيل .. مستحيل

كانت تقفز فوق السلم بلا وعى ودموعها تتقاطر من بين جفניה، دخلت شقتها وهي تلمم شتات ملابسها التى مزقتها أصابع عمرو النائرة.

وفي غرفتها ألقت بنفسها فوق الفراش وهي لا تزال تنتحب من هول المفاجأة. سلطت عينها إلى أعلى، كأنها تحاول أن تراه .. تمنّت أن تنفذ نظرتها من الجدار لعلها تراه.. أو قد تجد إجابة لديه عن ذلك التصرف :

... أين كان يقضى وقته حتى تلك الساعة المتأخرة .. ومع
من .. هل كان مع صديقه حقاً .. ومن هو .. أيمكن أن يكون مع
إمرأة .. ومن هي ؟

تقلبى على الفراش والحيرة تلعب بمشاعرها، ثم غابت من
جديد مع أفكارها :

.. ما الذى جعل عمرو يقدم على هذا التصرف معى .. أهو
الخمير، أم أكتشف حقيقة مشاعرى نحوه .. هل تصورنى إنسانة
أخرى .. أم أنه حقاً يحبنى..

جلست فجأة وهى تتكىء على مسند الفراش .. ثم رفعت
رأسها مرة أخرى إلى أعلى وقد راودها الاحتمال المحبب إلى قلبها
.. ثم همست فى نشوة :

.. يحبنى ..

.. أحقاً يفكر فى ؟

ولم تخب ظنون بشرى .. فلقد كان عمرو فى تلك اللحظة
يفكر .. ولكنه لم يكن يفكر فيها وحدها .. كان يفكر فيما سيحدث بعد
عودة عمه من البلد .. فهى لن تتوانى عن أخباره بتفاصيل ذلك
التصرف المشين.

كان يقطع غرفته ذهاباً وإياباً وهو حائر من موقفه .. خجلاً
من تصرفه، لا يعرف كيف سيواجه عمه الذى دأب على رعايته

سنوات طويلة .. أهنأ أن يكون الاعتراف بالجميل .. تمنى لو سحقتة تلك الصفة بدلاً من أن تقيقه .. أدرك بأن عليه أن يتخذ قراراً .. أى قرار .. المهم أن يجد لنفسه مخرجاً لهذا المأزق .. توقف فجأة كأنه تذكر شيئاً هاماً .. وهمس فى صدره :

.. با إلهى .. ماذا أفعل .. أى خطيئة قد ارتكبتها مع ابنة عمى .. يا للكارثة، ليتنى فقدت حياتى قبل أن أفقدها بتلك الصورة .. تراها ستغفر لى .. مستحيل .. لن تغفر، وإن فعلت هى إلى أين سأهرب أنا من جريمتى ..

استدار إلى النافذة وأراح عنها الستارة المدلاة فوقها .. فوجيء بسيطرة الفجر على الأفق .. شعر برجفة تمرى فى جسده .. سويغات قليلة وتصبح فعلته على السنة أفراد العائلة بأكملها.

وبهدوء كبير أتجه إلى حقيبة الملابس وبدأ أجمع بداخلها كل ملابس وهو ينرف دمه صامته شعر بها تنساب إلى أعماقه .. ثم توقف برهة يدير فيها عينيه حوله يمسح الغرفة بنظرة حائية، ثم استدار متخاذلاً، وهبط السلم بخطوات حثيئة.

ولأول مرة يشعر عمرو أنه غريب على طريق اعتماد السير عليه مرات ومرات، وغريب عن كل شىء حتى عن نفسه.

استوقف سيارة أجرة، واتجه بها إلى محطة باب الحديد، وهناك أنهى بعد رحلة غير طويلة على فندق متواضع واستطاع أن

يحجز لنفسه غرفة أكثر تواضعاً ترك بها حقيبة ملابس .. ثم عاد مرة أخرى للطريق سائراً بين المارة كأنه يحتمى بهم.

وكانت المفاجأة أكبر من توقعاته عندما وصل إلى شركته وفوجيء ببشرى تجلس وراء مكتبها كعادتها .. حاول أن يتراجع كأنه تذكر أخيراً أنها تزامله في الشركة، ولكنه لم يفلح بعدما التقت عيناه بنظرتها الراضية في هدوء مما شجعه على التقدم.

- بشرى .. أرجوك أمنيى فرصة الحديث معك بعد إنتهاء عملك .. وسأعتذر أنا عن الفترة المسائية.

أزعجه صمتها .. ولكنه أرف بالراح :

- أرجوك يا بشرى .. وبعدها سألته عن عمل آخر .. كما بحثت عن مسكن آخر.

وهنا بدأت أسارير التوتر على وجهها وهى تقول :

- ماذا قلت ؟ .. مسكن آخر ؟

لاحقها مستعظفاً :

- أرجوك أقبلى .. ستمحبنى الفرصة .. أليس كذلك ؟

أومات برأسها موافقة وهى مشفقة على حالة المضطرب.

كان منكس الرأس وهو يسير بجوارها بعد أنها فترة العمل الصباحية .. حاول بكل الطرق ألا تلتقى عيناه بنظرتها. بينما جاهدت

بشرى لكى تخفى إحساسها بالنشوة والسعادة .. فتلك هى المرة الأولى
التي ينفردان فيها معاً فى مكان عام .. شعورها بأنهما يسيران نحو
مكان بعيد عن كل العيون .. بعيداً عن أبيها وعن جيرانهما .. جعلها
سعيدة .. بدت شاردة تحلم بما سيصارحها به عمرو .. كان الصمت
محبباً لكليهما .. هو مشحون بالخجل والتوتر .. وهى تستعذب
توقعاتها على أجنحة الأمانى والآمال.

وداخل الكازينو اختاراً مكاناً منزوياً وجلسا متقابلين حول
مائدة تكاد تحتفى تحت أفرع كثيفة لشجرة طالت بها السنون حتى
أنحنى جذعها.

وما أن شعراً بالأمان، وبات من المحتم أن يقطع أحدهما
الصمت. لم يجد عمرو مناصاً من أن يرفع عينيه نحوها وإذا به
يزداد اضطراباً عندما لاحظ وجنتيها وهى تنوب فى حمرة الخجل ..
وما فتئت أن تحولت تلك الحمرة إلى دماء تتزف من قلبها فى حسرة
حبسية .. نبحث من خلالها كل أحاسيس التفاؤل والتمنى، بينما كان
عمرو يسرد عليها كل شيء عن حياته الخاصة. وهو لا يدري أن كل
حرف ينطق به يتحول إلى سهم مسموم يمزق بنصله أحشاء قلبها ..
كان يبحث عن مبرر يتعلل به لتصرفه بالأمس لعلها تغفر له فعلته،
فراح يخرج من صدره اسرار كثيرة طال سجنها فى أعماقه، حدثها
عن أحلام وحبه العميق لها وكيف عاش طوال السنوات الماضية وهو
يأمل فى أن يتوج ذلك الحب الكبير بزواجه من أحلام .. وكيف سهر

الليالى وهو يئن تحت قبضة الحرمان واليأس والخوف من أن يواجه أباها فيقابل بالرفض الأكيد.

وأخذته النشوة وهو يؤكد عليها كأنه يفشى سراً ستسعد به قائلاً:

— من أجل هذا قررت العمل فترتين .. حتى أتمكن من التقدم إلى أبيها.

ثم واصل كلماته دون أن يهتم بما طرأ على وجهها من أسارير الحزن وما برق بين جفنيها من قطرات دمع حبيسة، تصورهما أضفاً على وعلى قصة حبه الرائعة، مما دفعة لكى يسترسل فى أدق أمور علاقاتهما حتى وصل فى نهاية الحديث إلى حادثة الأمس وأسبابها، وكيف كان مغموراً بالعشق ومسحوراً بالاتبهار لما رآها فى شقة هدى .. بأنه كان مسلوب الإرادة والعقل وأن تصرفه معها كان بلا وعى وبلا تقدير للمسئولية.

ومرة أخرى أشاح بوجهه عنها وهو يتعلم قائلاً :

— لقد ذكرت لك الحقيقة .. وأرجو أن أجد عندك الصبح والمغفرة.

بدت مثيرة فى هدونها وهى تتفحص وجهه مما شجعه على الاستطراد قائلاً :

— بشرى .. أنت تعلمين مكانتك عندى .. وأنت الوحيدة التى
يمكننى أن أبوح لها بأسرارى وأن ألجأ إليها لأشرح همومى .. أنت
الآمان بالنسبة لى .. و ..

ولكنه توقف عن الحديث برهة منزعاً لدموعها التى أنسابت
بهدهوء بعدما عجزت عن الاحتفاظ بها كثيراً بين جفونها .. ثم تساءل
فى بلاءة :

— ماذا بك يا بشرى .. اتبكين ؟

سارعت تمسح وجنتيها بأصابع مرتعشة وهى تردد بصوت
هزيل :

— لاشيء ... لا شيء ...

ثم نهضت وهى تخفى توترها وأردفت :

— يجب أن أعود الان حتى لا أتأخر .

سار بجوارها مستسلماً فى انتظار قرارها الذى سيحدد مصيره
فيما بعد، ولم يستطع فى النهاية أن يتحمل قسوة الصمت على أفكاره
المشتتة فبادرها قائلاً :

— لأن لم أحظ منك بكلمة ..

التفتت إليه وهى ترمقه بنظرة تحيط بها غشاوة الحزن ..
وأجابت :

— إذا كنت تقصد حادث الأمس .. فأنا نسيته تماماً.

ابتهجت أسارىره وهو يردد :

— لا تتصورى كيف رفعت عن صدرى هموماً ثقيلة .. فأنا ..

قاطعته وهى لا تزال تحتفظ بنظرتها إليه :

— المهم أنك شعرت بالارتياح .. فلا تبال إلى أين استقرت

تلك الهموم بعد ذلك ..

ابتسم فى برود بعدما عجز عن فهم مقصدها وازداد سعادة

عندما استطردت وهى تبعد عينيها عن وجهه :

— لا تنس أن تعيد حقائبك.

صمت برهة، تأملته فيها بحرص كبير ثم قالت :

— فالأمر لا يعدو كونه سوء فهم .. وعلى ما يبدو أنه من

ناحيتى فقط.

انفجرت أسارىره وهو يتساعل :

— هل تعديننى باستمرار صداقتك لى إلى الأبد ؟

— أعدك بهذا .. إذا سمحت الآتية أحلام بذلك.

ثم استدارت تجر فى خطواتها المنهارة، وتركته يقف وحيداً

يتابعها فى دهشة بلا وداع.

★ ★ ★

كانت الحركة غير عادية في شقة فارس أمين، لم تكن من أجل بعض الترتيبات الخاصة بالحفلات المعتادة، ولا من أجل الاستعداد لاستقبال توفيق بك رئيس مجلس إدارة الشركة الذى تعددت زيارته في الفترة الأخيرة، ولكن من أجل شيء آخر، جعل من فتحة تتلمس في ظل زوجها وهي تكاد تنوب نكلها في كيانه، بينما تشرف أحلام على كل احتياجاته بمساعدة بالغة .. فالיום موعد سفره إلى إيطاليا، وبالرغم من أنها ليست الرحلة الأولى بعد أن قبلت استقالته من عمله إلا أنهما في كل مرة يحسبان لهذا الموقف أعظم الحساب، كانت بالنسبة لهما طقوس التناول لما يستتبع تلك الرحلة المعتادة من هدايا تفوق كل طموحات خيالهما، وهو أيضاً أدرك بخبرته بأنها فرصته الأكيدة لينال من اهتمامها ورعايتهما الزائدة والتي لا يحظى بها طوال فترة إقامته بلا رحلات.

كان سعيداً وهو يدور برأسه ليتلقى طلباتهما التي تفوح منها رائحة الأمر، والتحذيرات بالألا ينسى هذه المرة الفرير الأبيض لفتحة وكذلك أشرطة الفيديو والباروكات وبعض البارفانات وكثير من

الملابس الداخلية التى ستهب أعصابه وعليه أيضاً ألا تخونه ذكرااته بالنسبة لاحتياجات أحلام من أزياء الموضة وعدد من العنسات الملونة التى تستعملها فوق مقلتيها حسب ألوان فساتينها ...و...

أنفجر ضاحكاً عندما همست فتحية فى أنه قائلة :

- لاتس أحدث الفيتامينات أيضاً .. فضرب على صدره بيده وهو يزال يقهقه :

- أعتقد أننى لازلت فى حاجة لها ؟

ووجدتها أحلام فرصة لاقتحام لحظة الانسجام بينهما ثم قالت:

- بالمناسبة يا أبى أود أن أستاذك للقيام برحلة مع هدى إلى الفردقة .. سنمضى ثلاثة أيام هناك مع بعض قريباتها.

حاول أن يصمت برهة ليتخذ قراراً بشأن طلبها ولكنه لم يفلح، بعدما التقت نظراته بعين فتحية، وكأنها تحرك لسانه بالشفرة، فسارع قائلاً:

- يجب أن تأخذى معك ملابس ثقيلة .

واستسلم بعدها للقيلات من جديد ولكلمات التمنى بقضاء رحلة ممتعة فى إيطاليا ..

وشعرت فتحية بأن من الواجب مكافأته فلحقت به قبل انصرافه
قائلة :

— ألا تسأل عمى عن رغباته .. فربما ..

قاطعها فى استحسان :

— أنت دائماً هكذا يا حياى .. تفكرين فى كل شىء ..

ثم أتجه مسرعاً إلى غرفة أبيه وهو يحمل حقيبتَه المعدة
لسفـره، وأقـرب منه متلطفـاً فى عجلة من أمره وقال :

— لقد حان موعد سفـرى يا أبى .. ألا تأمر بشىء أحضره لك
من هناك ؟

التفت نحوه وابتسامة عريضة تستقر تحت شاربـه الكثيف،
ويلحظه صمت تفصحـه من خلالها، ثم قال بنبرة مكـلومة :

— أود أن تعود سريعاً لأرى عليك أحدث ما وصلت إليه
موضة القمصان المزركشة.

اندفعت الدماء إلى رأسه حتى بدت وجنتاه كعـرف الديك .. ثم
أجاب متهاكاً وهو ينصرف من أمامه :

— باى ... باى ..

— وعليكم السلام ..

ولم تجد فتحية صعبة لكى تدرك ما حدث بينه وبين أبيه،
فتلففته بين أحضانها تودعه وهى تربت على ظهره تهدده كالطفل
وهو يردد بغیظ مكتوم :

— لافائدة .. لقد حاولت أن

فتصمته بقبلة ثم أتبعها بأخرى قائلة :

— لا تشغل بالك يا عزيزى .. يجب ألا تسافر وأنت مهموم .

— أنا قلق عليك .. وأخشى أن تتعرضى لضغوطه بافتحية.

— من أجلك يا حبيبى أتحمل مالا يطيقه أى إنسان .. هيا الآن
حتى لا تتأخر.

وقفت تلوح له من شرفتها تودعه بينما، كانت تصبح به أحلام
وهى تقف بجوار هدى فى شقتها وتحثه على ألا ينسب طلباتها، فهى
لم تنطق صبراً حتى ينصرف وهرعت إلى صديقته تنقل إليها موافقة
أبيها على القيام برحلة الغردقة، وبدأ الحديث يأخذهما إلى جمال
الطبيعة هناك .. الانطلاق والحرية والسعادة .. مجموعة الأصدقاء
الظرفاء، الوجهاء، الأثرياء .. الحياة والحب.

وبدهاء يفوق خبرة أحلام تساعلت هدى فى قلق :

— ولكن .. هل سيوافق عمرو ؟

أكتأبت فى خوف حقيقى وهى تقول :

— لست أدرى .. كم تمنيت أن يكون عمرو معنا حتى تستكمل
سعادتي .. كل شيء فيه أفسه ويثير إعجابى به، غير أنه لا يزال
متوقعاً داخل كهف التزمّت والتقاليد .. و ..

— اسمعى يا أحلام .. قد يمكننى إقناعه بالحضور معنا.

قفزت نحوها تقبلها بفرحة كبيرة :

— أحقا يا هدى .. لبتك تفعلين هذا .. وسأكون أسعد إنسانة فى
الدنيا كلها ..

ثم صممت لحظة ذابت خلالها الابتسامة .. وقالت :

— ولكن .. إذا رفض .. ثم اتعنتين أنه سيأتى اليوم.

سارت هدى بخطى متئدة تجاه النافذة وسحبت نظرتها إلى مالا
نهاية ثم قالت كأنها تحدث نفسها :

— إحساسى يقول أنه سيأتى !

ثم التفتت إليها وهى تستجمع واقعاً من جديد قائلة فى فتور :

— عليك بالانتظار مع والدتك .. وعند حضوره سأأتى إليك
لأبلك .. وسأجد الحيلة المناسبة لكى تمضياً معاً وقتاً سعيداً.

وتحققت نبوءة هدى مع حلول المساء .. لم يخدعها إحساسها،
وكأنها تملك قدره خارقة استطاعت من خلالها أن تسخرها لتحقيق

مأربها، وهى فى الحقيقة لم تكن تملك شيئاً غير مفاتيها التى خلبت عقل عمرو .. كان لديها إحساس قوى بأنه حتماً سيعود وستسوقه خطواته التائهة إلى عرينها، وتدفعه رغباته الحبيسة إلى حيث المجهول .. إلى العالم المسحور الذى يختزن الكثير من الغموض .. وهى تذكر أنه شغوف لفك طلاسمه، حتى ولو كلفه الأمر أن يقترب من الجحيم.

لم ترتعش أوصاله هذه المرة وهو يدق بابها .. لم يتلفت مذعوراً من أن يراه أحد .. كان واثقاً من نفسه .. وأكثر أتراناً وهنداماً .. ولم تخطف الأضواء بصره عندما فتحت له الباب لتدخله .. كانت عيناه تستمتعان بدفع نظرتها إليه .. الدفع الذى تسلل إلى كل كيانه وهو يتبعها إلى حديث مجلسه الأول فى الزيارة الأولى.

وهى أيضاً استعدت لاستقباله بكل وسائل الإنقضااض .. وكأنها اتخذت قرارها بأن تكون هذه الليلة هى ساعة الصفر للهجوم الكبير، فأسرته من الوهلة الأولى بنظرتها الحالمة .. وقيدته بسلاسل شعرها الناعم، وحاصرته بخطواتها التى دارت حوله كالنحلة وهو يتابعها بشوق فى انتظار لدغتها .. ودارت معها للكؤوس من جديد، والتهبت جفونه من حرارة لون فستانها الأحمر .. فتمنى فى حينها ألا يطلق أنفاسه حتى يمكن من الاحتفاظ بعطرها فى صدره .. أمور كثيرة تبدلت عن لقائهما الأول .. فلم يثرثر بشيء .. لا حديث بينهما يشوش على الأنغام الحالمة .. لا تؤثر يلقى به فى دوامات القلق .. لا

شئ سوى السكون، وحديث الصمت الذى تبارت فيه لغة العيون
وتفوقت على كل الأساليب، بل وسيطرت عليها تماماً .. حتى كادت
أن تصدق هى نفسها .. وبأنهما حقاً يعيشان قصة حب أقوى من أن
يفرق بينهما أحد.

غير أنها عادت إلى الواقع عندما ترمى إلى مسامعها صدى
رنين جرس الباب، وأدركت أنها على موعد مع فراق حلمها الجميل،
عندما فوجئت بأحلام تسألها :

— هل حضر ؟ ..

وبلا إرادة أو تباطؤ أجابت :

— لا .. وأحمد الله أنه لم يحضر لأن معى ضيفاً من الاسكندرية.

أستردت أنفاسها بعد أن أغلقت الباب فى وجه أحلام العابس،
ثم بدأت تستجمع أسارير الفتنة على وجهها عند اقترابها من عمرو،
الذى بادرها قائلاً فى بلاهة وغيبوبة :

— ألم تخبرى أحلام بوجدى ؟

— ظروفها لا تسمح الآن ..

أجابت باقتضاب دون أن تنظر إليه.

وبدا إحساس الأمان يزحف رويداً إلى صدر عمرو.

وبدأت هي تزحف بأنفاسها إلى رنتيه، وإنهارت مقاومته تماماً تحت قبضة الظلم والحُرمَان .. كاد أن يصرخ بعد أن أفاق من غيبوبة شهوته وهو راقد بجوارها على الفراش في سلام .. كأنه فقد عزيزته وهو متأثر بسكرة الخمر .. كأنه اكتشف فجأة أنه ضحية لمؤامرة دنيئة أسقطته في الوحل .. ومع هذا لم يحاول أن ينجو بنفسه بعيداً .. ولم يستطيع مقاومة رغبته العنيفة في أن يعيد الكرة من جديد ويغوص برأده هذه المرة ليفرغ ما في كيانه من بقايا حُرمان.

أيقظه شعاع الشمس بلكرة خفيفة على وجهه، ليرى نفسه يحتمى بأحضان هدى لا يسترهما إلا غطاء رقيق حاول أن يخفيهما أنفسهما به من عيون الليل.

تخشع صوته وهو يهمس قائلاً :

— لقد سرقتنا النوم .. ولا أعرف كيف سأذهب إلى عملي.

مسحت بشفتيها على صدره العاري..

— هل سعدت بليلة أمس ؟ ..

عاد يردد في قلق :

— أخشى أن يراني أحد وأنا منصرف من هنا.

أطبقت على فمه تقبله بنهم ثم همست :

— يجب أن تعتاد ألا تخشى شيئاً، طالماً معك هدى و ..

صمتت برهة وهى تركز نظرتها فى عينيه واستطردت :

— وطالما أنت معى ..

— وأحلام .. هل ستخبرين أحلام .. أرجوك ؟.

انقضت من جانبه وهى تضحك بملء رئيتها، وبدت أمامه عارية تماماً دون أن تغير ذلك اهتماما كأنه شىء عادى .. أولادته أن تفهمه بأنه عادى .. وازدادت فى قهقهتها عندما لاحظته وهو يبعد عينيه عنها .. ثم قالت ساخرة :

— المرأة هى للمرأة يا عزيزى .. أما الوقت .. أو الظروف ..

أو الفرصة .. فلا تشغل بالك بشىء ..

— لا أفهمك ..

دفنت نفسها داخل قميص النوم وهى تردد :

— هذا هو عيبك الوحيد .. على كل حال .. سامحك دقائق

لتستعد وسأراقب لك الطريق إلى أن تتصرف.

لم يزل التوتر يلزمه حتى بعد أن ابتعد عن المنطقة بأكملها

.. إحساسه بالخطيئة جعله يتوهم بأن عيون الدنيا تراقبهن وبلعنات

أجداده تلاحقه.. بدا شريداً وهو ينتقل من طريق إلى آخر كأنه يبحث

عن نفسه للضائعة والتي قدما فى لحظة غيبوبة سعى إليها بإرادته.

توقفت السيارة الأجرة أمام باب شركته، لم ينتظر دوره فى المصعد .. الساعة تشير إلى العاشرة والنصف .. ساعتان تأخير .. أنفاسه تتلاحق لاهثة وهو يقفز على السلم .. شعر بالارهاق يمتص قواه .. اندلف إلى مكتبه خلسه من عيون زملائه فوجيء باحدهم يستوقفه ويخبره بضرورة تواجده عند رئيس القسم، هرع وهو يحمل الاضطراب بين ضلوعه .. لم تسعفه كل الأعانير من تحذيرات رئيس القسم .. عاد ليجلس وراء مكتبه وهو لا يكاد يرى الأوراق أمامه، سرت فتشعريرة عنيفة فى جسده عندما ظهرت أمامه بشرى .. اقتربت منه وهو يراقبها يحذر، كأنه يحاول أن يقرأ ما يدور فى خلدتها .. كانت شاحبة الوجه، بطيئة الخطى .. انتفض واقفاً وهو يحاول أن يبدو طبيعياً وبادرها :

— أهلاً يا بشرى .. صباح الخير.

— صباح الخير يا عمرو .. أنت ..

قاطعها متردداً؛

— كيف حالك يا بشرى .. أراك شاحبة ؟

— أين كنت يا عمرو.

أزرد ريقة وهو يحاول مراوغة نظراتها التى تحاصره..

ثم أجاب :

— كنت .. كنت عند أحد أصدقائي.

صمتت .. تسلل بنظرة نحوها .. ترقب أن تعقب على إجابته .. ولكنها لم تفعل .. حديثه طويلاً فى صمتها .. شعر بأنه يفهمها، كأنه يسمعها .. وهى لا تزال واجمة أمامه .. اهتزت أهدابه بشدة عندما توهم بأنها ستقترب من الحقيقة.

حاول أن يشوش عليها أفكارها :

— اجلسى يا بشرى.

— جئت أخبرك بأن عمك سأل عنك .. ويريد أن يراك.

— عمى.

قالها منزعاً .. بينما استدارت بشرى فى طريقها للانصراف .. أسرع وراءها بعد أن أفاق من صدمته .. استوقفها قائلاً :

— بشرى.

التفتت إليه وهى تغوص بنظرتها فى عينيه .. ازداد ارتباكاً من غموضها ثم همس بصوت خجول :

— كنت أريد أن أحدثك قليلاً بعد أنتهاء فترة عملك .. لن أعطلك كثيراً .. فإننا لدى الفترة المسائية .. و ..

— لن تحضر إلى المنزل اليوم أيضاً ..

لاحنها مؤكداً :

— لا ... لا .. سأعود مباشرة بعد انتهاء العمل .. ولكنى أريد
أن أحدثك قليلاً .. إذا لم يكن لديك مانع.
أومات برأسها .. وانصرفت بهدوء.

كانت بشرى تشعر بأنها المسؤلة عن عذابها، وبأنها السبب فى
خفق قصة حبها قبل أن تستمتع برحيق السعادة .. أحبته فى صمت ..
افتترضت فيه أنه يشعر بذلك الحب ويبادلها به .. تصورته يعيش
معها نفس الاحساسيس الصامتة .. اللوم على نفسها يؤرقها .. فهى
فقدته فى لحظة بعد أن حرصت على حبه سنوات طويلة . وبالرغم
من ذلك لم تستطع أن تخلصه من المسئولية لما حدث. وكأنها لم
تتوقع أن يكون من حقه أن يحب غيرها. لهذا بدأ الأمل يدغخ خيالها
من جديد .. ساعات طويلة قضتها وهى تبحث عن كل الاحتمالات
لمضمون حديثه.

هل جد فى الأمر شيء .. تراه سيعتذر عن تصرفه السابق
مرة أخرى .. هل اكتشف أخيراً إنها تحبه.

نق قلبها بقوة مع دقائق الساعة الثانية .. تلكأت وهى ترتب
بعض الملفات .. أحست بأنها تطير من فوق الأرض وهو يقتحم
مكتبها قائلاً :

— هيا يا بشرى.

استقبلته ببشاشة، لفت نظره تورده وجنتيها وبريق السعادة الذى يحيط بمقلتيها .. سارت بجانبه تنصت إلى دعوته كأنها أروع الألحان التى سمعتها فى حياتها :

— ما رأيك لو تناولنا طعام الغداء فى مكان قريب.

بدت كالفراشة الهائمة وهى تهبط بجوارده على السلم .. تفرقت إيتسامة الأمل على شفيتها من جديد .. وهو أيضاً بدا متفائلاً لصفائها .. مازحها بكلمات كثيرة .. حاول أن يتسابقا على السلم .. كادت أن تسقط، ولكنه يلحق بها وينقذها وهما غارقان فى الضحك .. لم يترك كفها .. ولكنها سحببت يدها برفق، خافت أن تحلم أكثر من ذلك فتصدق نفسها.

وفقاً أمام البوابة .. نظر إليها بسعادة حقيقية قائلاً :

— الآن .. إختارى أنت المكان.

أجابت ضاحكة :

— انت صاحب الدعوة .. وعلى كل حال سأتولى أنا الاختيار وأنت مهمتك الدفع.

ما كاد يتقدم خطوة واحدة بجانبها حتى توقف فجأة، وكأنه تجمد فى مكانه أوصعقة ماس كهربى فى لحظة .. شعر بالأرض تموج تحت قدميه وعقله ينضغط إلى حد الانفجار.

سارعت بشرى تسأله :

— ماذا بك يا عمرو

ولكنه لم يجيبها وظل على حاله وهو يتابع خطوات أحلام وهي تقترب أكثر فأكثر نحوه، كأنه أثر أن تحدث الكارثة دون مقدمات أو أنه عجز فعلاً عن تفسير ما يحدث .. وما أن دنت منه حتى بادرت به متلهفة دون أن تعبر بشرى إهتماماً :

— أين أنت يا عمرو .. لقد أنتظرتك طوال ليلة أمس.

وبصعوبة بالغة حاول أن يقول شيئاً .. ولكنه لم يفلح بغير بعض الهمهمات غير المفهومة .. فأردفت ثانية :

— لقد انشغلت عليك كثيراً .. وجئت لاطمئن بنفسى قبل سفرى..

اختلس نظرة سريعة إلى بشرى ثم قال متلعثماً :

— أقدم إليك بشرى .. و ..

قاطعته باقتضاب وهي ترمقها بنظرة غير مبالية :

— أهلاً .. المهم أنت أين كنت .. هيا اجلس فى أى مكان هنا .. فأننا ليس أمامى غير ساعة واحدة ولا بد من عودتى بعدها لأستعد للسفر.

سكن حائراً فى صمت وهو يرقب أسارير الدهشة والأسى التى
سيطرت على ملامح بشرى، التى وقفت بدورها تتلفت حولها تبحث
عن أى وسيلة تنتشلها من ذلك الموقف الرهيب على قلبها.

أنتبه على اصرار أحلام وهى تقول :

— هه .. ماذا قلت .. إلى أين سنذهب

وقبل أن يتفوه بكلمة، فوجىء ببشرى تزحف بخطوة للوراء

قائلة :

— هل تسمحان لى بالإصراف ... لقد ..

ولكنه قاطعها وهو يذوب توتراً :

— أبدا .. ستأتين معنا .. أقصد ..

وسرعان ما انسحبت الدماء من وجهه على أثر كلمات أحلام :

— لا تضغط عليها يا عمرو .. فربما كانت مشغولة حقاً ..

ولم تسطع بشرى أن تقاوم رغبتها فى أن تملأ عينيها منها،
ومضت لحظة قاسية استطاعت من خلالها أن تتبين ملامح وجهها
جيداً .. ثم قالت موجهة كلماتها لعمرو :

— حقا .. لاتضغط على أكثر من هذا .. عن إنك وتركتهما

منصرفه وهى تسحب مع خطواتها ائقال خيبة الأمل مرة ثانية.

سيطر الوجود على عمرو وهو يتجه إلى الكازينو برفقة أحلام ..
تساعل بينه وبين نفسه عن سبب توتره وارتيابه .. وعن إحساس
الضيق الذى تسال إلى مصدره نتيجة لهذا الموقف، ولماذا لم يسعد
بلقاء أحلام مع بشرى .. شعر لأول مرة بشيء يجذبه بقوة للتفكير فى
تصرف بشرى وبإحساس يحول كل اهتمامه تجاهها .. اقتحمت
أحداث مضت ذاكرته .. رآها وهى تنتظره فى كل ليلة .. وهى تهتم
بشئونة .. تذكر اللمعة الحائرة التى كانت بين جفניה ولم يدرك لها
سبباً فى ذلك الوقت.

كانت صورة بشرى تلازمه فى الحاح غريب .. و ..

انتبه مرة أخرى لأحلام وهى تنهى حديثاً طويلاً لم يسمعه :

— ما رأيك فى هذا الموضوع

— أى موضوع

أخذتها الدهشة وهى تقول :

— إذن أنت لم تكن معى .. ترى ما الذى يشغلك .. فأنا لى

أكثر من عشر دقائق وأنا أحثك .. أين ذهبت بخيالك.

حاول أن يبدو طبيعياً وهو يجيب :

— لا أبدا .. ماذا كنت تقولين ؟ .

— مسافر اليوم إلى الغردقة .. سامكت هناك أربعة أيام .. ما رأيك لو تلتى معنا؟ .

— ليس بإمكانى .. وحتى لو استطعت .. فكيف سأذهب معك وأنت بين عائلتك.

ضحكت فى ميوعة :

— لا .. ساكون مع هدى..

جحظت عيناه منزعاً :

— ماذا قلت .. هدى .. كيف ستسافرين معها وحدك .. ألا يكفى رحلتك الغربية معها بالاسكندرية .. أقصد .. أراك لا تبدى أى اهتمام بدراستك .. أنت أصبحت تأخذين الأمور بإستهتار غريب..أو..

ارتفع صوتها فى حدة قليلاً :

— عمرو .. ماذا بك .. أراك تفتعل ثورة دون مناسبة .. كنت أعتقد أنك ستسعد بهذه الرحلة .. على الأقل سنكون معاً فى حرية كاملة..

تمالك غيظه وهو يقول بصوت مكتوم :

— وعملى .. ألم أقل لك إنك أصبحت تستهترين بأمر كثيرة .. ألم تسألنى كيف سيمكننى الانقطاع عن عملى أربعة أيام مرة واحدة..

وضح الاستياء.. على وجهها وهى تردد كأنها تحدث نفسها :

— عملك .. أعتبر هذا الهلاك الذى أنت فيه عملاً .. ألا ترى الناس حولك كيف يعيشون .. ستظل حبيس مكتبك طوال حياتك مقابل بضعة جنيهات لا يمكننا من خلالها أن ...

وجدتها فرصة لينفس عن غظيه واضطرابه :

— إنى أعمل فترتين همست فى محاولة لتهدئته :

— يا عمرو الدنيا تغيرت .. يجب أن تكون تصرفاتك وتفكيرك أكثر عصرية .. لن تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة طالماً أنت على هذا الحال.

ضرب بقبضة يده على المائدة صارخاً :

— وماذا تريدنى أن أفعل .. هل أسرق .. أم ..

— يا حبيبى لم أقل لك هذا .. ولكن أمامك الفرص كثيرة .. لماذا لا تعمل بالتجارة .. ألا ترى رجال الأعمال .. أنهم — أخبرتك أن هذا الأمر يحتاج إلى رأس مال.

ربنت بكفها على يده وهى تقول :

— هدى ستفتح لك هذا المجال .. ستعرفك ببعض أصدقائها من رجال الأعمال وسيمكنك أنت بذكاك من خلاصهم أن تحقق ما تريد.

انتفض منزعاً وهو يصيح بعصية لم تعد عليها :

— لا تنكرى أسمها مرة أخرى .. وأنا أحذرك من السفر معها.. أوحى استمرار علاقتك بها.

— عمرو .. ضغط على يده لتجلسه مرة أخرى، تفحصت وجهه قليلاً قبل أن تبادره قائلة :

— أنا لى أومك على ثورتك .. ولكن من حقى أن عرف السبب.

أرتعشت شفتاه دون أن يتفوه بكلمة، وحتى لو استطاع فلن يؤدي هذا إلا للقطيعة بينهما.

ازداد اضرباً لاصرارها :

— إنى انتظر منك الإجابة .. اعطنى مبرراً واحداً وتأكد إنى سأطيعك.

تمتم فى همهمة .. ثم قال بهدوء غير متوقع :

— إنها تعيش بمفردها .. ولها أصدقاء .. ثم إنها تتصرف بحرية غريبة .. و ..

— وما مفهوم الحرية عندك ..

— الحرية لها حدود وقيود ..

ابتسمت بدهاء :

— وهل رأيت عليها ما ينفي هذا .. ثم بماذا تسمى علاقتنا أنا
وأنت ؟.

ازدرد ريقه محاولاً للتكبير في سؤالها المفاجيء .. ثم قال :

— أنت تعرفين جيداً حدود علاقتنا معاً ..

— تأكد يا عمرو أن هناك آخرين من الممكن أن يتحدثوا عنا
كما يتحدث أنت عن هدى .. أليس هذا ظلاماً.

بدت المناقشة بينهما وكأنها بين ضدين وليسا حبيبين .. كان
صراعاً يحتويه الغموض .. هدى بالنسبة إليه بؤرة الخطيئة .. ويريد
أن ينفذ قلبه وحبه من برائتها ولكنه يقف عاجزاً أمام كل محاولات ..
لأن جسده يغموض في تلك البؤرة .. ولهذا استطاعت أحلام أن تنتصر
لصديقتهما بل وتحثه على الاستجابة والتآلف معها .. وتركته في
النهاية يجتر إحساسه بالذنب وقد والتآلف معها .. وتركته في النهاية
يجتر إحساسه بالذنب وقد خيمت عليه مشاعر الخوف من المستقبل
الغامض الذي لا يأمل منه خيراً، فبدأ مستسلماً لوخزات الشكوك في
صدره بالنسبة لكل شيء .. حتى في نفسه ..

ولم يكن من الصعب على عمه اذى قام برعايته أن يحتسب ذلك الصراع الذى طغى على وجهه ونظراته .. مما دفعه على مواجهته صراحة.

— ماذا بك يا عمرو .. أراك على غير عهدى بك.

— لا شيء يا عماء .. ولكنى مرهق قليلاً ..

كان العم كريماً معه واسع الصدر والحنان ، حاول أن يهون عليه شطحات الظروف. وذكره بأن للحياة ملايين النوافذ وبإمكانه أن يستبدل واحدة بأخرى ليظل من خلالها إذا ما أغلقت أحداها فى وجهه .. كاد أن ينهار أمام إحساسه بالأمان تجاه عمه وأن يخبره بكل شيء، غير أنه تراجع مقهوراً خوفاً من عواقب الأمور، وكان مثله ليس من حقه أن يعيش كالآخرين وأن يصيب ويخطئ .. و.. أن يحب.

— على كل حال .. أنا طلبت رؤيتك لأنكرك بأن تسافر غداً للبلاد.

وجد نفسه ينصاع لأوامره دون تفكير وهو يجعل بين جنباته شعوراً بأنه طريد الحياة وبأن عليه أن يعيش على هامشها، وليس من حقه أن يشكو أو أن يتألم .. ولا يجب أن يلتزم بالظروف المحيطة به لأنه دخيل عليها .. ولهذا قرر السفر فى اليوم التالى دون أن يهتم بما إذا كان تغيبه سيؤثر على عمله أم لا .. مسافر محملاً بهومته فى وحدته والخوف يملأ قلبه من أن يفقد الإنسانة الوحيدة التى كانت تشعره بالأمل لقدمه، وهو يراها الآن تبتعد فى عتاد تجاه دوامات عنيفة قد يصعب عليه أنقاذا منها، بل وإنقاذا نفسه أيضاً .

همس في صدره متسائلاً :

.. ترى .. أين أنت الآن يا أحلام ؟ ..

لم يستطع أن يريح نفسه وضميره، وفشلت توقعاته .. لأنها هي نفسها فقدت السيطرة على تحديد رغباتها .. تريد أن تستوعب كل شيء حولها .. تريد أن تستقطب لسنوات عمرها أحلى الأيام وأجملها .. لم تجرؤ ولم تحاول أن تتصدى لتيار هواها، فتركت نفسها تهيم مع نسائم الانطلاق بلا حدود، وراحت تذيب مشاعرها في كل موقف غريب وكل بريق يبهر خاطرها قبل عينيها.

كانت الرحلة شاقة إلى الغدقة بالسيارة .. ولكنها سعدت بالمفاجآت التي كانت تنتظرها هناك .. حيث العلاقات الجديدة .. وأصدقاء الاسكندرية الثلاثة .. وفتيات في مثل عمرها من كل مكان .. وسعدت أكثر باهتمام الجميع بها، وخاصة هشام الذي بدل سيارته البونتيك بأخرى مرسيدس ، ترددت قليلاً وهو يقدم إليها أول هدية ثمينة .. خاتم ذهبي .. قبلته تحت تأثير إيماءة من هدى .

أدركت أخيراً بما كانت تقصده هدى بمقولتها المأثورة :

— الكل للجميع، والجميع للكل.

فاعتادت أن تبدأ الحديث مع هشام وتنتهي مع حاتم، وأن تقذف بالكرة إلى سميرة لتتلقاها من عادل .. بدت فخورة بنفسها وهي

تتسامر مع بعض رفيقاتها بغرفة الفندق فى أحاديث قبل النوم، ودفعها إنبهار بعضهم ممن تضاغت معلوماتهن كثيراً عن الحياة فى الدول المتقدمة، لأن تسترسل فى الأقايصص تقلا عن والديها .. ولعب خيالها دوراً إيجابياً فى المزيد من التصورات لهن .. وانتقلت المبادرة من فتاة إلى أخرى .. فتلك سمعت بأن هناك كل شىء مسموح طالما أن أحداً لا يتدخل فى شئون الآخر .. وهذه تؤكد أن الفتاة فى سن السادسة عشرة يكون لها مطلق الحرية فى كل أمورها .. وأخرى تبرهن على رقى الحياة هناك بأنها عرض وطلب وبأن الحياة لمن يستحق .. أو يملك .. وكلهم يستحقون لأنهم جميعاً يملكون .. ولا أحد يجبر أحداً على شىء .. هناك الحرية كالهواء للجميع ..

بدأ الاستياء يغشى وجه أحلام، لأن الفتاة الأخيرة قد أستحوذت على إهتمام الجميع بحديثها الأخير، فأقحمت نفسها بالحديث قائلة :

- بالنسبة لى .. فانا أعيش هذه الحياة .. أسرئى تحيا حياة عصرية واعية لا أبى ولا أمى يحاولان أن يتدخلوا فى شئونى .. وإن حاولا فلن يفلحا لأن بإمكانى أن أضعهما عند حدودهما. الدنيا اتغيرت.

ارتفعت الضحكات من حولها .. تصورتهم يكذبونها .. فأردفت :

- يمكنكن أن تسألن هدى فى هذا الموضوع.

مضت لحظة صمت سريعة تساءلت بعدها واحدة منهن

— ولكن .. أين هدى..

أجابتها الأخرى :

— أنها مع سميرة وهناء .. فى الغرفة الأخرى.

همهمت أحلام بصوت منخفض، وهى تمسح الغطاء فوقها :

— إذن .. لنتنظر الصباح ..

وما كادت أن تغلق جفניה استعداد للنوم، حتى أفرعها جرس

التليفون .. كانت هدى المتصلة وقد باربتها قائلة :

— هل استعديت يا أحلام ؟

— نعم استعديت للنوم ..

أبعدت السماعاة عن أذنيها من قوة قهقهة هدى التى قالت

فى نهكم :

— وهل جئنا إلى هنا لكى ننام .. هيا ارتدى ملابسك بسرعة ..

سأكون فى انتظارك على باب الفندق.

تلفتت أحلام حولها فى تردد .. ثم أجابت :

— سأبلغهن حتى ..

قاطعتها هدى كأنها تراها :

– لا تخبرى أحداً .. فالمجموعة لا تحتمل المزيد ..

و .. استقبلتها هدى عند الباب ثم صاحبت بها :

– هيا أسرعى .. فأمامنا ليلة من ليالى ألف ليلة... سنذهب

معاً حيث ينتظرنا الجميع .. سنتقضى سهرة ظريفة جداً فى الشاليه..

تساعلت وهى تستكمل تعطير عنقها بالرفان :

– أى شاليه ؟ ..

رمقتها بنظرة خاطفة قبل أن تجيبها :

– أمثال هشام لديهم فى كل منطقة مسكن خاص.

– وهل ؟

جذبتها من يدها لتدخلها إلى السيارة وهى تردد :

– لن نكون بمفردنا ..

وهناك .. كانت المجموعة تنتظرهما حقاً، تلفتت تمسح المكان

بنظرتها، رأت وجوها تعرفها وأخرى لم تلتق بها من قبل .. كان

هشام متأنقاً كعادته .. سحرها فستان سميرة الوردى .. كادت أن

تلفت منها ضحكة عالية عندما رأت حاتم وهو يضع كأساً فوق رأسه

فى رهان مع آخر بالآ يسقط .. ولكنها ابتلعت ضحكتها عندما

اصطدمت عيناها بنظرة تسللت إليها من ركن بعيد كانت لرجل

غريب فى عمر أبيها ..

كان هشام أسرعهم إليها، أستطاع من خلال حديثه اللبق أن يزيج عنها وشاح الخوف، مما شجعها للاستكاثرة إليه .. وبدأت عقارب الساعة تدور لتطل نجوم الليل وتراقب قبلة دافئة طويلة تجمع بين اثنين متعانقين، ورقصة حالمة بين آخرين .. وحديثا هامس بين الغريب وهدى .. وجلسة رومانسية انفرد بها أحلام وهشام الذى مد إليها بكأس فى صوت رخيم :

— كنت أخشى ألا تحضرى معنا هذه الرحلة.

تصدت للكأس بأطراف أصابعها وهى تقول :

— أرجوك .. أنا لا أشرب..

ارتاحت لتهدبه وازدادت اطمئنانا إليه عندما وضع الكأس فوق المائدة الصغير التى بينهما بلا الحاج .. ثم همس :

— هل تعملين ؟

— لا .. أنا طالبة.

فأجابها بقوله :

— هل أنت مرتبطة ؟

ترددت برهة ثم أجابت :

— تقريبا ..

كانت ابتسامته جذابة وهو يتسائل :

— لم أفهم ..

كان يشرب كثيراً .. ويتحدث قليلاً .. وهي منبهرة بكل شيء حولها .. تذكرت حفلات والديها .. قالت تحدث نفسها ..

.. لا بد وأنهم هنا يعقدون الصفقات أيضاً .. اقتحمت مخيلتها صورة عمرو .. وجدت نفسها مدفوعة لسؤاله :

— ماذا تعمل ؟

أجاب بلا اكتراث :

— فى التجارة ..

— هل هى مربحة لهذه الدرجة ؟

أوما برأسه وهو يكمل رشفة كأسه ..

لم يشف غليلها .. أرادت أن تستجمع كل المعلومات .. فقالت تستدرجه :

— لا بد إنها تحتاج إلى رأس مال كبير ..

— نكاه .. و .. علاقات.

بدا ملولاً لهذا الحديث الجاف، كاد أن يستجيب لفتاة أخرى تطلبه لمراقبتها إلا أنه تراجع إلى مكانه عندما جذبت أحلام إهتمامه بتناولها الكأس الذى أمامها وقذفت ما بداخله فى جوفها حتى اشتعلت وجنتاهما.

وسرعان ما انفجرت أساريره وهو يقول :

- إلى هذه الدرجة يهتمك الحديث عن التجارة .

سحبت ابتسامته على شفثتها وهي تضع لنفسها كأساً آخر ..

وقالت :

- هناك كثير من الأنكباء .. ولكنهم ليسوا أثرياء.

بدت ابتسامته أكثر سحراً وهو يجيبها في اقتضاب :

- أخى يعمل فى جمارك بورسعيد.

تجرعت الكأس الثانى فى جراءة.

- مسئول كبير.

وبلا اهتمام قال :

- لايشترط هذا .. و ..

صمت لحظة يصنع لها كأساً ثالثاً . . ثم أردف :

- أراك تتحدثين عن أحد يهتمك أمره.

سارعت بلا تردد :

- أجل .. تلك حقيقة.

- يمكننى مساعدته إذا أردت ..

كادت تلتهم كأسها بين شفيتها .. وهمست فى تحمس :

- أحقاً .. وبلا رأس مال .. هل يمكنك أن ؟

قاطعها بنقّة :

- ألم أقل أن الأمر لا يحتاج أكثر من النكاء والعلاقات ..

اقتربت هدى منهما، وكأنها كانت تراقب المواقف .. صورتها
فى عيون أحلام باهتة، وربما عرفتها فقط من صوتها حيث بلدتها
قائلة :

- أراك سعيدة يا أحلام.

كانت الحروف تتساقط من بين شفيتها فى ثقائل وهى تجيبها :

- الأستاذ هشام سيتعاون معى بخصوص ..

ولكنها صممت عندما قاطعتها هدى فى تهكم :

- يبدو إنكما اتفقتما على كل شيء.

لم تفهم أحلام مقصدها .. أو لم تحاول أن تفهم .. كانت ترى
أشباحا يتوارون أفراداً وإزواجاً .. والأضواء تخفت على التوالى
وهى تظنها رعدة أهداب .. وأنشقت الأرض عن هدى ابتلعتها ..
كما ابتلعت هى كأسها الرابع .. أحست بأنغام الموسيقى تذوب فى
عروقها، وبزراعه يحيط بخصرها كالثعبان .. استجابت لدفء شفيتها
فوق عنقها .. كان عطره نفاذاً غالباً .. نهضت طواعية تراقصة فى

هدوء .. شعرت بصدري يطويها .. تقدمت معه بخطوات حليمة ..
انتقلت من مكان إلى آخر إرتاحت لحنانه وهو يمدّها فوق الفراش ..
انتشيت لإحساسها بكيانها وهو يذوب بين شفّتيه .. كان صوته رخيماً
هادئاً وهو يهمس بأنفاس متلاحقة.

.. لن تندمي على تفكّك بي .. سأجعلك تنعمين بالسعادة والمال
.. سأقف بجوار من تهتمين به .. سأعاونهُ، سأجعل منه رجلاً ثرياً
.. سيكون له البونتيّاك والمال .. والقصور .. سيأخذك بين أحضانهِ
ويمطرك بقبلاته .. ستشعرين بالمتعة الحقيقية .. سيلتفكّك وهو يقول
لك أحبك .. أحبك .. و .. صرخت متوجعة .. ولكن .. في وقت لا
ينفع فيه الصراخ .. أو الندم.

★ ★ ★

تهدد الصعداء .. شعر بأنفاسه كأنها سياط تهوى على رنتيه
.. دار برأسه فى كل اتجاه لا يصدق أنه حر ظليق.

أربع ساعات، كأنها أربعة قرون قضاها فارس أمين وهو
محاصر بأسئلة المحققين فى المطار .. أسئلة مدربة لم يكن فى
مقدوره حيالها سوى الإعراف.

كانت البداية نظرة .. ثم ارتياب فى أمره، وخطوات انشقت
عن لا شيء بأصحابها وأحاطت به، ثم سؤال مباغت أحس بحروفه
تخترق أذنيه لتقتصص الحقيقة من أعماقه :

- هل هذه الحقيبة ملكك؟

ثم أيد أكثر تدريجاً تغوص وتطفو بين ثنايا الحقيبة، ومخابيء
سرية تكشف عن نفسها تحت رادار أصابعهم .. ثم أوراق مالية
تخرج تباعاً فى رزم مقيدة تكان تثن من تقوصها .. حرروها من
قيدها .. نصف مليون دولار .. ودارت حوله الأسئلة من جديد :

.. لماذا لم تسجلها فى أقرارك الجمركى ؟

.. من أين لك بهذا المبلغ ؟

.. منذ متى وأنت بالخارج ؟

.. ماذا كنت تعمل هناك ؟

.. هل تعمل لحساب أحد.. ومن هو ؟

.. كم محاولة نجحت فيها .. و ..

توسل .. أقسم كذباً بأنه لا يعرف القوانين .. بكى صادقاً، خائفاً لا نادماً .. حاول أن يوهمهم بأن المبلغ حصيلة بعض الأعمال التجارية التي قام بها في إيطاليا .. تضاعل أمام نظراتهم المتشككة في أقواله .. عاد وتوسل.

- خذوهم .. خذوا جواز سفرى .. لا أريد السفر مرة ثانية .. أنا رب أسرة .. مستقبلى بين أيديكم .. و .. تمت المصالحة.

وما أن وجد نفسه خارج مبنى المطار .. وتأكد من أنه بعيد عن عيونهم حتى وقف يلتقط أنفاسه وكل نبضة فى كيانه ترتجف .. لقد كان خائفاً بحق، ليس مما حدث فقط ولكن مما سيحدث فيما بعد .. ماذا سيقول للوسيط الذى بينه وبين أصحاب المال .. كيف سيواجه الصكوك التي وقعها بلا تحديد كضمان لهم .. هل سيغفرون له مقابل محاولاته الناجحة فى السابق .. هل سيقدمونه للمحاكمة ثم إلى السجن .. هل سيقتلونه .. كيف سيصبح شأنه أمام زوجته وابنته .. وأبيه إذا اكتشفوا حقيقة أمره.

أسند برأسه على زجاج نافذة السيارة الأجرة التى أستأجرها
إلى منزله .. لم يستطع أن يفرق بين الغروب وبين إحساسه بالمصير
الذى ينتظره، كانت الدنيا فى عينيه تحيط نفسها بوشاح قائم لا يدعو
إلى الأمل .. بدأ شاردأ مكتئباً، وكل خلجات عقله منشغلة بحكمهم
عليه إذا علموا الحقيقة.

كان لا يدري أنهم أيضاً فى إنتظار حكمه عليهم .. لم يكن
يدرى بأن أموراً تفوق تصوراته قد حدثت فى أسرته وهم جميعاً فى
إنتظار عودته .. كل منهم يأمل فى أن يضع حداً لصالحه .

فتحية زوجته تنتظره فى تربص لتثور لكرامتها من تصرفات
ابيه تجاهها .. وأبوه يضمر قراراً لن يفصح عنه إلا فى حالة يأسه ..
وابنته تعلق مصيبتها إلى حد الانفجار بعدما أعلنها الصراع بين الجد
أمين وبين فتحية إلى حد الانفجار بعدما أعلنها الجد بوضوح بأنه لا
يقبل تصرفاتها المريبة فى غيبة زوجها وخاصة أن زيارات توفيق
بك قد تكررت فى لقاءات منفردة وأوقات لا تحتل إلا الشكوك.

وما كان منها إلا ثورة عارمة أطاحت من خلالها بكل
الاعتبارات والحدود، مستغلة ذلك الموقف الذى اعتبرته ت دخلاً سافراً
منه .. وراحت تنفس عن أحقادها نحوه متهمة إياه بالخبل والجنون ..
و .. استقرت الأمور بينهما تحت قبضة بركان متأجج لحين حضور
فارس، ليحكم بينهما وهما لا يعلمان بأنه قد تحول من قاض إلى متهم
فى إنتظار حكمهم جميعاً .

كان استقبلاً فائراً، وهدت الأسارير الجامدة كالجليد تخفى
تحتها شرايين تحولت دماؤها إلى ذرات بارود تتأهب للانفجار.

همس فى وجوم منكسر :

— كيف حالك يا أبى؟

— بخير ..

تلقت حوله قبل أن يقول لنفسه :

— أرجو هذا .. أين فتحية وأحلام؟

أشار بعصاه تجاه لا شيء :

— تجدهما هناك .. وأحلام أعتقد أنها بالمنزل.

— أرجو أن تأذن لى لأراهما ..

وما كاد يستدير منصرفاً حتى استوقفه بحزم :

— كنت أفضل أن أحدىك الآن .. ولكنى أراك متعباً من السفر

وسأرجىء حديثى معك للصباح .. وأود أن أخبرك بأنك لم يعد أمامك

الخيار .. فاما طاعتي وأما ..

قاطعة متلهفاً :

— ماذا فى الأمر يا أبى .. هل .. هل علمت شيئاً هل اتصل

بكم أحد بشأنى.

- أنا لا أفهم ما يدور بذهنك .. ولكنى سأصبر حتى الصباح
على كل حال .

بدأ فارس يجر فى خطواته تجاه غرفة زوجته .. تردد برهة
قبل أن يقتحمها .. استعد خلالها لحفواتها ولهفة استقبالها كعادتها معه
.. ولكنه فوجيء بغير كل توقعاته عندما وجدها تستقبله بكلمة واحدة:
- أهلا ..

وقف أمامها مندهشاً، ولكنها استدارت مولية إياه ظهرها ثم
استطردت بجفاء :

- ها أنت عدت لتضع حدا لهذا الجحيم الذى أعيش فيه.
- فتحية .. أيمكن أن يكون هذا استقبالك لى بعد طول الغيبة.
التفتت إليه مسترجة :
- أعزنى يا فارس .. لقد أصبحت الحياة مع أبيك مستحيلة ..
إنها الجحيم حقاً..

اقترب فى تردد :

- ماذا حدث يا عزيزتى .. فأنا ..

فاجاته بقسوة، وهى تطعنه بلا هوادة بأحرف كلماتها :

- إنه يطعننى فى شرفى .. بل يحاول أن يؤكد ذلك.

— ماذا ؟

— أجل أنه يحاول أن يثبت ذلك .. اتهمنى بالخيانة.

بدأت الدماء تندفع إلى رأسه وهو يحاول أن يبدو متمالكاً :

— ما الذى دعاه إلى ذلك ؟

ضحكت مستهزئة :

— يحاول أن يتهمنى بأننى وتوفيق بك على علاقة غير شريفة.

كرر جملته فى بلادة :

— ما الذى دعاه إلى ذلك ؟

— أنه أصبح مخرباً .. كيف يظن هذا لمجرد تكرار زيارته لى

ليطمئن على أحوالى .. و ..

قاطعها بشفاه مرتجفة :

— وهل كان يفعل .. ولماذا .. ومتى

— فى أى وقت يشاء .. فماذا يمكن أن يكون بيننا ؟ .

لحق بها قيل أن تجلس على الفراش :

— فى أى وقت كان يحضر .. وهل بمفرده .. ولماذا .. ألا

يكتفى برويتك فى العمل ؟

رفعت نظرها إليه فى تحد :

- فى المساء .. وبمفرده .. هل يدور بذهنك شىء ؟

جلس بجوارها وهو يدفن رأسه بين كفيه .. ثم تمتم فى
إنكسار:

- إنى لا أحتمل المزيد من المشاكل .. لقد انتهيت ويجب أن
تعلمى حقيقة المصيبة التى أعيش فيها الآن .. سأخبرك بشىء قد
يصيبك بالأنهيار لهول المفاجأة .. أنا ..

قاطعته بتردد وكأنها لم تسمع منه شيئاً .. ولا تتوقع منه شيئاً:
- أنا أشعر بالاختناق .. وكأننى أتنفس هواء مسموماً .. لم أعد
أحتمل الحياة مع هذا العجز المتطفل .. و..

صرخ منتفضاً وهو يلوح لها بكلتا يديه :

- كفى .. أقول لك إننى أعيش وسط مصيبة قد تؤدى بى إلى
السجن أو الموت .. وأنت مازلت ترددين هلوستك .. أقول لك أن
حياتى وحياتكم مهددة بالتشرد وأنت تتباكين على حياتك الكريهة مع
أبى .. بسببكم جميعاً أصبحت مجرماً فى حق القانون .. وبسبب
نصائحك أنت بالذات أندفعت كالمسحور وراء أحلامك .. أسمعني ..
لقد أصبحت مجرماً .. مهرباً .. والآن جاء الوقت لكى أدفع الثمن ..
لقد صادروا كل الأموال المهربة .. نصف مليون دولار .. أتعلمين
ما معنى هذا .. سيطالبنى أصحاب الشأن بالمبلغ .. سأدفع ثمن هذا
.. السجن أو الموت.

ثم صمت لحظة التقط فيها أنفاسه واستطرد وهو فى إنفعاله :

- ما رأيك الآن .. كنت أغامر بحياتى من أجلكم .. وأنت هنا
تمرحين وتسهرين .. وتعبئين بكرامتى فى غيابى مع هذا الوغد
المدعو توفيق ..

و إنهار مرة أخرى جالساً وهو يحاول أن يكبت مدامعه، ثم
التفت إليها قائلاً :

- لقد ضاعت حياتى .. ولو كتب لى النجاة فأسضع حداً لثلك
الأوضاع الشاذة ..

سأعود ببيتى لسابق عهده .. سأطرد هؤلاء الجرذان الحقيرة،
وأعيش باقى عمرى نادماً على ما فعلت .. و ..

احتبست الكلمات فى حلقه عندما قاطعته بكلمات شعر بها
وكانها تصفعه بقوة على وجهه لكى يفيق من حالته الهستيرية .. فقلته:

- هذا أدعى لكى تتوقف أبداً عن هذه السخافات التى
يقوم بها..

دار بعينه حتى استقرت نظرته عليها ثم همس :

- ماذا تقصدين ؟

انتقلت بهدوء من مكانها ثم جلست على المقعد المواجه له
وأجابت :

- أقصد إنك كنت مبتركب خطأ أكبر بإنفعالك .. والسير وراء خرافات أبيك ..

- أى خطأ .. وما دخل أبى فى الموضوع ؟

تركته فى حيرته، واتجهت للنافذة تطل من خلالها نحو الأفق المظلم .. ثم هممت :-

- دعنى أفكر كيف أخلصك من هذه الورطة ..

قال فى يأس :

- لا أمل .. لا أمل ..

التفتت إليه فى دهاء :

- هذا يتوقف على موقفك تجاه أبىك.

أخذته الدوامة مرة أخرى وهو يتساعل فى منلة :

- وما دخل أبى ؟

احتنت نبرتها فجأة وهى تقول :

- لأنك بسببه كنت مستنفع الثمن فعلاً .. وربما أصابك مكروه كبير ..

وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة .. أسكتته بإشارة من يدها وأردفت قائلة :

- على كل حال سأوضح الأمر لتوفيق بك وأنا على يقين أنه لن يخذلنى .

أندفعت الدماء إلى رأسه بقوة من ردها :

- وما شأن توفيق هذا فى أمرى .. أما زلت تودين أن ..

أخرسته بصيحة قضت على قواه :

- لأنه صاحب المال .. إنه الرأس الكبيرة التى لا تعلم عنها شيئاً ..

حاول أن ينهض .. ولكنه لم يفلح فى هذا .. بدت الأشياء حوله وكأنها فقدت جاذبيتها نحو الأرض .. اتسعت عيناه وهو لا يرى غير الضباب .. وانفجرت شفاته وهو لا يقول شيئاً .. بينما ظلت هى مسلطة نظرتها القوية عليه فى تربص وانتظار لرد فعله.

وبصعوبة بالغة همس بصوت منخفض :

- و.. هل كنت تعلمين ؟

قالت بثقة :

- أجل ..

- و.. هل يعلم هو أنك تعلمين ؟

- أجل ..

- جميعكم كنتم تعلمون ..

- أجل ..

ردد في توجس :

- وابنتي .. أحلام .. كانت تعلم ؟ -

- لا ..

ثم أردفت في استهتار :

- وما دخلها في الموضوع ؟

طاطاً رأسه في إنكسار وهو يتساءل :

- من كان يعلم إذن غيرك وغيره ..

- هدى ..

انتهض في فزع، وأسرع إليها يهزها بعنف وهو ممسكاً

بكتفها:

- إذن .. كانت مؤامرة منكم جميعاً على .. كنتم تسخرون مني

دون أن أدري .. جعلتموني أضحوكة بينكم تسببوني كما تريدون ..
كنتم ..

تخلصت منه بصعوبة وهي تصرخ في وجهه :

- كف عنك هذا الهراء .. أنت نفسك كنت تعلم حقيقة اللعبة
وبإرادتك سميت .. أنا لم أدفعك على شيء .. أنت الذى امتلأت
جشعا وأستهلست المال السريع .. و ..

صمتت برهة ، استعادت فيها توازنها .. ثم استطردت :

- ثم لا تنسى أنك فى مأزق حقيقى .. وأى تهور طائش منك
سيدفع بك إلى السجن .. أو .. إلى نهاية لا أحبها لك ..
اقتربت منه وهى تمسح بأصابعها على شعره برفق .. ثم قالت
بحنان :

- أنا أعلم أنك مرهق ومتوتر .. ولذلك سيكون تفكيرك غير
صائب .. دع الأمر لى وأنا سأتصرف .. هيا أخلد للنوم .

استسلم ليدها وهى تدفعه برفق نحو الفراش، واستأق علىه
بملابسه الكاملة ثم سكن دقائق فى صمت، رفع رأسه بعدها إليها
متسائلاً :

- هل يمكنك إنقاذ الموقف حقاً ؟

أنحنت إلى شفتيه تقبلها وهمست :

- لا تهتم يا عزيزى .. كل شيء سيكون على ما يرام .

أغمض عينيه وهو يعلم أنه يراوغ نفسه، وبأنه لن ينعم بالنوم
وأن طالت به الليالى .. كان يعلم أن فجره سيتبعه الظلام .. وبأنه لا

يملك غير الاستسلام، كل شيء بدا واضحاً في أعماقه .. أدرك أنه أصبح كيان بلا ظلال .. إنسان تافه لا قيمة له، وبأنه كان ضحية لأطماعه ولتهوره وراء بريق كاذب .. لم تسطع كلماتها الأخيرة. كل شيء سيكون على ما يرام. أن تجعله يتوقع خيراً .. ولكنه لم يكن يملك خيالها غير أن ينتظر على أمل .. هذا الأمل جعله حبيب غرفته طوال ساعات غيابها عن المنزل، لم يستطع مواجهة أبيه، وقتل ما في صدره من أحاسيس الشوق لرؤية ابنته التي لم يرها منذ وصوله.

كان الخوف يملكه ويعتصر قلبه .. ساعات طويلة مرت وهو منكش فوق فراشه يتربق في رعب حقيقى عودتها .. وكأنه فى إنتظار حكم الإعدام.

كاد أن ينفطر قلبه بين ضلوعه عندما سمع طرقات على باب غرفته .. وهمس بنبرة حبيسة متسائلاً :

.. من ؟

انفتح الباب لتطل من ورائه رأس أبيه التى تحمل عيناه الحازمة، قائلاً :

.. ألا زلت نائماً يا فارس ؟ .. لقد أصبحنا فى الظهيرة ..

لم يكن أمامه غير أن يجلس على الفراش وهو يردد :

.. لقد استيقظت لتوى يا أبى .. أين أحلام ؟

أقرب منه وهو يتكىء على عصاته :

- قد تكون فى غرفتها .. أو تكون قد انصرفت .. فالأمور فى
ها البيت تسير بطريقة غامضة .. و ...

نهض فارس من فراشه مما لفت نظر أبيه أنه لا يزال بملابسه
للكاملة .. فسارع فى تهكم قائلاً :

- النوم بهذه الطريقة .. من مستلزمات الموضة أيضاً ..

بدا الإرهاق واضحاً تحت جفنيه .. والحزن يحيط بنظرته
وهو يجيب :

- لقد غلبنى سلطان النوم : ولم أستطع مقاومته.

بدت ابتسامة باهتة من تحت شارب أبيه وهو يجلس على
الكرسى المقابل له، وأخذ يضرب الأرض بعصاته وهو يخفى رأسها.

وبأساير جامدة .. ونظرة ذابلة مستكينة .. همس :

- إنى أسمعك يا أبى ..

وكانها لحظة انفجار لبركان ضاقت به الحمم، كانت كلمات
الجد أمين تتدافع من شفتيه كالشلالات العنيفة، كاشفاً من خلالها عن
حقيقة الوضع الذى أصبحت عليه أسرته .. اتهمه بأنه السبب فى كل
شئ .. أسرة إنهارت قوائمها وغاصت فى جوف كثبان التسيب
والانحطاط، واندفع فى ثورته مؤكداً له بأنه يعيش مع زوجة خائنة

استطاعت أن تقوض رجولته وتعبث بكرامته، وبأنه فقد السيطرة على تصرفات أبنته الوحيدة التى فقدت بدورها ثقتها به واحترامها له.

كان عنيفاً وهو يقطع الغرفة بخطوات ثائرة وبصوته الأجش الذى طال سجنه وراء قضبان الصمت الطويل .. لم يهتز لصورة ولده المنهارة وهو منكس الرأس ذابل الجفنين، وراح يصرخ فى وجهه قائلاً :

- انظر إلى نفسك .. لقد أصبحت صورة ماسخة لرجل .. تركت وظيفتك ودمرت جدران بيتك وجعات منه مسرحاً لأقدام الغرباء حتى داست عليك أنت. تنكرت لراية الاتزان والخلق لترفع شعار التحرر الزائف .. و ..

استدار فجأة إليه وأشار بعصاته نحوه حتى كادت تلامس نهايتها كتفه ، ثم أرفف :

- هل تعلم شيئاً عن أبنتك .. هل تعلم أنها تركت دراستها وراحت تتمثل بك وبأمها فى إستهتاركما .. هل تعلم إنها تغيب عن المنزل بالأيام. كل هذا وأنت غافل وسط العفن والضياع .. و ..

جلس منهاراً بعد أن أرهقته أحاسيس الغضب ثم أسند رأسه على رأس أبو الهول وهو يردد كأنه يحدث نفسه :

.لميتى مت قبل أن أرى أبنى الوحيد على هذه الصورة لميتى
مت قبل أن ..

ولكنه توقف عن الكلام عندما فقد فارس السيطرة على مشاعره مجهشاً في البكاء وأرتفع نحيبه وكأنه طفل صغير قد سدت أمامه كل منافذ النجاة. ولم يعد أمامه إلا الاستسلام للعقاب.

وتحركات مشاعر الأبوة في صدر الجد أمين، وأفزعه رؤية ولده ذى الخمسون عاماً وهو يذرق الحسرة من عينيه، فنهض بقوامه الفارع مقترباً منه وهو يضع كفه فوق رأس فارس قائلاً بحنان :

— لم تنزل أمامك الفرصة يا ولدى .. والله غفور رحيم.

ولكن . كان قرار القدر أقوى من آمال الأب والأبن معاً، ولم يمهل أحدهما فرصة لمعايشة التصور الذى يروق لكل منهما، فالجد يأمل أن يرى ولده وهو يثور لكرامته وأن يستعيد رشده وأمجاده التى تراكمت عليها الأخطاء الواحدة بعد الأخرى، يريد أن يسمع صيحته القديمة وهى تدوى فى المنزل لتزلزل أركانه كما كان يفعل من قبل كلما استاء من أمر رآه لا يتناسب مع مركزه وأخلاقياته كان يترقب تلك اللحظة التى ستطوى بعدها صفحات الخطيئة والتهور والتى ستلجم جماح التسيب الذى تفرعت حنوره تحت روابط الانتماء الذى كان يجمع بينهم.

أما فارس فكان هو الآخر يترقب معجزة من السماء قد تطفو به بعيداً عن حصار الخوف، كان ينتظر المجهول .. يريد أن يخرج من قمع المذلة، ليس إرضاء لأبيه فقط ولكن إرضاء لنفسه العائدة والتى أزاح والده عنها غبار الضياع بكلماته .. كان يأمل أن يدمر

اصنام العجز التى طالما أحاطت به فقيدته، لتسلب منه أغلى ما يمكن أن يمتلكه إنسان.. فقط كان يريد، ووالده يريد .. ولكن الواقع أفصح عن رغبة أخرى .. ولم مهلهما غير سويغات قليلة عادت بعدها فتحية من عملها وهى تحمل فوق أسارير وجهها الجمود والتسلط وإزدادت تسلطاً وهى تقترب من فارس فى شموخ المنتصرة دون أن تعير انتباهها للجد .. ثم قالت بحزم.

— المشكلة بدت أصعب بكثير مما توقعت ..

انطفأت جذوة الانفعال فى حينها عند فارس وهو يومئ برأسه فى يأس دون أن ينبس بكلمة واحدة، بينما أختلعت زوجته نظرة مستفزة إلى الجد الذى وقف متعمداً فى إنتظار ما يمكن أن يقدم عليه ولده .. وأردفت :

— على كل حال سنتدبر الأمر عندما يأتى توفيق بك مساء غد .. فهو رجل كريم وأرجو أن نقضى معه وقتاً طيباً .. بالمناسبة لقد ..

ولكنها تصمت فجأة عندما قاطعها الجد فى زهو وإصرار قائلاً:

— هذا الرجل لن يدخل هنا مرة ثانية.

استدارت نحوه ببطء وهى تكظم غيظها وتساءلت ساخرة :

— ومن صاحب هذا القرار ؟

شد من قامته قبل أن يجيبها قائلاً :

— تلك رغبة ولدى قبل أن تكون رغبتي.

التفتت إلى فارس مرددة :

هكذا إذن .. هل ..

ولكن فارس يلاحقها هامساً في تردد :

— دعى الأمر الآن يا فتية .. سنتحدث فيما بعد .. فأنا ..

قاطعته بعناد كأنها تعتمد كشف حجمه الطبيعي أمام والده وقالت :

— لا .. بل يجب أن تكون الأمور واضحة من الآن .. يجب أن تضع حداً لتلك التدخلات التي سئمت منها .. هل حقاً تلك هي رغبتك .. أجبني هل لا ترغب في زيارة توفيق بك .. قل لأبيك النائر من وهو توفيق بك .. قل له يكف عن التدخل في حياتي وألا ..

وينهض فارس مفزوعاً إليها وهو يردد في استعطاف :

— فتية أرجوك .. لا داعي لثورتك .. أنت أعصابك رقيقة .. لا تشغلي بالك بالمشاكل .. أنت يا ..

ثم أمسك عن الكلام وكأنه تذكر فجأة أن والده لا يزال يقف معها .. فتسلل بنظرة تجاهه وهو يدور برأسه، وسكن برهة ينصت للصراخ الصامت الذى يغشى عين والده ثم عاد لفتحية مستطرداً :

- هل تسمحى لى بالانفراد بوالدى قليلاً .. فلأنا أريد أن ..

ولكن جاءه صوت أبيه المشحون بالأسى مقاطعاً :

- لا .. لن أنفرد بك .. ولن يكون بيننا حديث .. بل ابق أنت

معه حيث شئت .. و ..

وبدأ ينصرف خارج الغرفة وهو يدق بعصاته فى توتر .. ثم التفت تجاهه بنظرة أمتزجت فيها الحسرة والاحتقار .. وأردف قائلاً :

- وحيث أعنتك يا فارس بك ..

ثم تركهما منصرفاً بعد أن جذب الباب خلفه بكل قوة.

كانت فتحية أذكى كثيراً من أن تزيد الأمر اشتعالاً، فلم تحاول استمرار الضغط على زوجها .. هى تعلم جيداً، وتعلم كيف تسوسه دون أن تشعره ببعظه أو انصياعه لكل رغباتها، ولكنها أيضاً رأت أن تحكم قبضتها على تفكيره قبل أن يستوعب أى تأثيرات من والده، فتركته قليلاً مع شروده ثم أنفضت بكلماتها عليه لتجهز على البقية الباقية من تفكيره .. أن كان هناك بقايا .. قائلة كأنها تحدث نفسها :

- إنها لكارثة ..

أزعجها صمته الذى التزم به دون أن يلتفت إليها .. اقتربت منه بحرص ثم وضعت كفها فوق كتفه هامسة :

- يحزننى كثيراً عذابك يا فارس .. وأرجو أن تدرك حقيقة واحدة، وهى أنى زوجتك التى تحبك .. وأنى مخلصه لك .. وعليك أن تثق بى مهما كانت الأقاويل من حولى وحولك ..

رفع رأسه نحوها ثم قال بنبرة حزينة :

- لست أدرى كيف سأصرف .. إنها مصيبة كبيرة .. أنا ...

جلست بجواره وهى تحيطه بذراعيها :

- لكل مشكلة لها حل فلا تقلق .. ثم اننى من أجلك فقط سأبتازل عن كرامتى وسأبتعد بك عن المشاكل .. حتى لا أسبب لك الحرج.

- أنا لا أفهم مقصدك. ما الذى يدور فى رأسك يا فتحة ؟

نهضت وهى تفرك فى أصابعها .. ثم توقفت فى منتصف الغرفة والتفتت إليه وفاجأته قائلة :

- لن أجعلك فى صورة لا ترضاها أمام عمى .. ولذلك أنا قررت أن يكون إجتماعنا غداً فى ثقة هدى .. و ..

أسرع نحوها قبل أن تسترسل .. قائلاً فى غيظ مكتوم :

- إنى أكره تلك المرأة .. و ..

وبدت منه التفاتة تجاه النافذة وأطلق نظره إلى المجهول كأنه
قد تذكر شيئاً قد غاب عن ذهنه طويلاً :

- و .. لكن أين أحلام ؟

زحفت نحوه بخطواتها الثعبانية وهي تحاول أن تتحمل
غطرسه الخاوية ثم قالت :

- أنا لا أرى سبباً لكراهِيتك المفاجئة لهدى، بالرغم من أنها لم
تسبب لك أي مشاكل .. بل على العكس .. إنها فتاة طيبة ظلمتها
الأسنة كثيراً .. ثم أنها في استطاعتها التأثير على توفيق بك لما لها
من علاقات عديدة.

وكالعادة .. نسي فارس كل شيء في لحظة ضعف بين يدي
زوجته وانصهرت أسارير الغضب عن ملامحه وسارع متسائلاً :

- أحقاً .. هل لهدى تلك السطوة على توفيق بك .. هل ..

قالت فتحية مؤكدة :

- وأكثر من هذا .. هل غاب عنك علاقاتها الكثيرة .. أنهم
جميعاً يسعون لإرضائها.

دغدغه إحساس الأمل في صدره .. ثم تسامل في بلاد :

- إنها تحب أحلام أليس كذلك ..

- تحبها كثيراً .. كما إنها تغدق عليها بالهدايا .. والمسكينة تأمل دائماً فى مودتها .. ولكن أبنتك هى الجامدة .. نادراً ما تستجيب لمرافقتها فى رحلاتها المتعددة .. فأنت كما تعلم أن هدى وحيدة. بدا هادئاً وهو يبدل ملابس استعداداً للاسترخاء ثم قال بتحمس:

- لا .. لا .. أحلام ليست على حق .. أنا من رأى أن مصاحبته لفئة مثل هدى خير لها من التسكع مع صديقات تافهات .. على الأقل مع هدى ستستفيد من المعلومات من خلال تلك الرحلات الداخلية.

استلقت فتحة على الفراش وهى ترمقه بنظرة لا تحمل غير الاحتقار، ثم سحبت الغطاء فوقها وهى تردد :

- لا تقلق .. سألت نظرها إلى هذا ..

أسرع فارس وأندس بجوارها على الفراش ثم سحب الغطاء حتى أخفى وجهه وكأنه يخفى نفسه من واقعة الذليل .. أو من الحقيقة .. وهو يعلم الحقيقة .. وهى أنه أصبح لا يملك غير أن يكون تابعاً لتوجيهات فتحة .. ولكنه تشبه بالنعامة التى تخفى رأسها فى التراب عندما تشعر بالخطر وهى فى تصورهما أن أحد لا يراها .. الفرق الوحيد بينهما أن النعامة قد تكون لا تدرى .. ولكن فارس أمين كان يدرى كل شيء ..

★ ★ ★

نقوص عمرو فجأة عند طرف الفراش، سحب الملاء يغطي بها صدره العارى وهو يعانى من قشعريرة الارتباك عندما سمع جرس الباب المتتالى .. نظر إلى هدى التى بدت أكثر أنزانا منه، أو أكثر اعتيادا على مثل تلك المواقف، ولكنها لم تقاوم كثيرا هى الأخرى عندما تحول الرنين إلى دقات عنيفة على باب شقتها .. التفت نظرتهما فى صمت مذعور .. تساءل عمرو فى همس شديد :

- أعتقدين من يكون ؟

أجابته بنبرة حبيسة :

- لست أرى ..

الرنين يتواصل، والدقات تزداد عنفا .. سحبت هدى قدميها للأرض .. كانت عارية تماما، تلفتت حولها كأنها تبحث عن مخابأ آخر غير صدر عمرو لتحتوى به .. أسرع تلتحف روباها القطيفة، ضغطت على خصرها بحزامه حتى لا يبدو شيء من جسدها المنفض .. دارت بنظراتها تمسح المصابيح المضئنة التى تسالل ضوءها للخارج، شعرت بالندم لأنها لم تطفئها .. رددت فى نفسها .. أه من هذه الموسيقى اللعينة هى التى كشفت وجودى بالمنزل .. ليتنى أغلقت التسجيل قبل أن أسعى لغرفة النوم.

اقتربت من الباب .. ثم تساءلت والاضطراب يفضحها :

.. من ؟

.. أنا أحلام أفتحي يا هدى .. هدى أنا أحلام ..

كانت يدها ترتعش وهي تمتد لمقبض الباب .. وما كانت تفتحة حتى فوجئت بها تفتح الردهة مسرعة وهي فى حالة ذعر كبير .. هالها المنظر الذى بدت عليه أحلام . سكنت ترقبها وهي تحاول أن تستعيد أترانها.

أفلتت منها همسة إلى أعماقها ..

يا إلهى

كانت أحلام منهارة تماماً .. أرتمت على المقعد وهي تسند رأسها إلى أعلى.

بدا السواد القاتم يحيط بجفيها، وحببات العرق تتقاذف من جبهتها .. صدرها يكاد أن ينفجر من تلاحق أنفاسها المخنوقة .. كانت ذابلة .. مكفهرة الملامح وملبدة الشعر.

وبحرص شديد حاولت هدى الاقتراب منها إلا أنها تراجعت فى خوف كأنها تذكرت فجأة أن هناك من ينتظرها فى غرفتها ..

أبدت التفاتة سريعة للخلف .. تذكرت عمرو .. لم تكن تدرى ما أصابه هو الآخر، حيث دارت به الدنيا .. تمنى لو استطاع أن

يقفز من النافذة حتى لو كان فى تلك هلاكه، فكل شىء بالنسبة إليه قد
إنهار تماماً .. كيف سيواجه أحلام .. حبه الوحيد الذى من أجله باع
نفسه ليحقق ما تريده .. أرادت له أن يكون رجل أعمال .. أن يكون
ثريا .. أن يكون أنيقا يرتدى أحدث الملابس ويقود أفخر السيارات ..
أرادت له كل هذا .. ولكن .. ليس إلى هذا الحد .. فهى أرادت منه
أن يفعل كل شىء، ولكن من أجلها وليس ليكون لإنسانة أخرى ..
كان يدور فى الحجرة كأنه دب حبيس وراء القضبان متعطش للماء
والحرية .. حاول أن يفكر .. إن يتساءل مع نفسه هل يخرج إليها
متعللاً بأى حجة .. هل يظل هكذا مختبئاً كالقار، ولكنها قد تدخل
عليه .. هل يفاجئها بظهوره ويصرخ فى وجهها بأنها السبب فى كل
شىء، هل يلعنها ويلعن تفكيرها المستهتر الذى أدى به إلى مستتقع
الرزيلة، أم يتوسل إليها أن تغفر له خطيئته .. هل ..

ولكنه أنتبه فجأة على صوت هدى وهى تردد :

- ماذا بك يا أحلام .. ماذا حدث أخبرينى .. وأين كنت طوال
هذه الفترة.

وكانها كانت تنتظر تلك الكلمات حتى انفجرت فى بكاء مريع
وهى تولول فى إنكسار :

- شىء فظيع .. لم أعد أرغب فى الحياة .. أريد أن أموت.

أطمأنت هدى لا ستسلامها واقتربت منها بهدوء ثم قالت وهى
تربت على كتفها بحنان زائف :

- لا نقولى هذا .. أنت مازلت صغيرة وجميلة .. أخبرينى
فقط، قد يمكننى مساعدتك هيا يا عزيزتى .. فأنا صديقك .. أم أنك ..
ولكنها توقفت أمام سيل الكلمات المتلاحقة التى راحت أحلام
تثرثر بها بغير تسلسل، ذكرت من خلالها كيف التقت بهشام وكيف
انبهرت بكل شيء يحيط به أو بهشام نفسه .. أخبرتها بدوام الأوهام
التي دارت بها إلى أن أوقعتها فى الخطيئة وكيف تحركت الخطيئة
فى أحشائها .. و .. كيف أختفى.

.. لا تتصورى كيف كانت صورتى فى عيون المعرضات.
وأنا بمفردى .. وكيف لا حقتسى الهمسات بعد أن دفع هشام مقابل
العملية .. وانصرف .. لأريد أن أعيش .. لا أعرف كيف اتصرف
.. ماذا سأقول لـ ..

ولكن هدى تقاطعها وهى ترفع من نبرة صوتها .. كان يهمها
أن صوتها يرتفع أكثر .. ينساب إلى آذان الدنيا .. وإلى عمرو ..
قائلة فى دهاء :

- لابد أنه يحبك وقد يأتى للزواج منك .. و ..

انقضت أحلام وهى متهاكة ورددت :

- لا لن يفعل .. ولن أفعل .. أنا أريد أن ..

ولكنها أطلقت صرخة من أعماقها كادت أن تقطع قلبها من خلالها عندما فوجئت بعمره يقف أمامها فى ذهول وهو يردد كالمعتوه:

- مستحيل .. مستحيل ..

الجم الذعر لسانها وهى تنظر إليه بعينين جاحظتين ثم هزولت بكل قوتها إلى الخارج .. بينما اقتربت هدى من عمره وهى تحاول أن تبدو فى أحسن حالاتها .. ثم قالت بصوت شهرت به انوثتها فى وجهه :

- اجلس يا عمره .. لا تشغل بالك بهذه الخائنة .. هى لا تستحقك .. فأنت ...

ولكنها فوجئت بصفعة مريرة فجرت خيوط الدماء بين شفثيها وهو يصرخ فى وجهها كالمجنون :

- أغربى عن وجهى .. أنت السبب فى كل البلاء .. و ..

اندفع متجاوزاً أياها إلى الخارج ثم تسمر فى مكانة ملتفتاً إليها قائلاً بحدة مكتومة :

- ستدفعين الثمن يا هدى .. سأعرف كيف ..

ولكنها سرعان ما كشفت عن وجهها الآخر .. واقتربت منه
بتقة استقرزية وفي عينيها بريق التحدى .. ثم قالت:

— ألا تنفع ما عليك أنت أولاً ..

ثم أوصدت الباب بقوة من خلفه.

كان الطريق مظلماً، والليل يكاد يشعر به عمرو يجثم على صدره وهو يسير بخطوات متعثرة .. لا يدري إلى أين يذهب .. كانت صور الماضي تتلاحق في خياله وهو يقاوم دموع الأسى بين جفنيه .. وكأن لاعماقه عيوناً ترى، فحشدت له مع خطواته كل أحداث الماضي الذى كان يوماً يمثل أجمل ما فى حياته .. رأى أطلى اللقاءات ولهفة الاشواق .. انصت لأحاديث الأمنى وأحلام المستقبل، رأى دموع الفرحة فى عينيها كلما حققاً خطوة أختصر بها من طريق البعاد الذى يفصل بينهما .. تلمس فى كيانه حديثها الدافىء وابتسامتها الحانية .. رأى الحب والحنان والوفاء راهم جميعاً يتقمصون فجأة أنياب التدمير والجبروت وتحولت تلك المشاعر إلى سلاح فتاك .. وكانت طعنة الغدر.

لم يستطع أن يوقف نزيف الدمع من عينيهِ، عندما صعد إلى حجرته بعد رحلة شاقة قطعها على قدميه .. وامتزج بكأوه بنحيب تلاطم صداه بين الجدران .. كان يبكى نفسه التى أحتقرها يوماً وألقى بها طواعية بين برائن الفسق والخطيئة .. كان يبكى ضميره الذى

أنقل عليه يوماً بكل ألوان الضغوط، حتى كاد أن يخمده بلا صحوة
ثانية .. بكى حاله وحياته، ومزقته للحسرة على ملاحقة البؤس له،
فبكى يتمه وإحساسه بالضيق، وتمرغ في أحزان الندم حتى اطمسته
خبيبة الأمل.

أدار رأسه نحو الباب عندما سمع طرقات خفيفة عليه ..
وهمس متساءلاً :

- من

- افتح ياعمر .. أنا بشرى ..

وكانها البشرى التى هبطت عليه من دنيا الغيب .. فما كانت
تعبر دهشتها لحالته المتوترة، حتى تحرك بركان الشجن من جديد فى
أعماقه وراح يلفظ من جوفه حمم الحقيقة بكل تفاصيلها، لم يشعر
بالخجل وهويسترسل أمامها .. ولم توقفه النظرة المريرة التى كانت
تحيطه بها .. تحدث كثيراً .. كاشفها عن إحساسه الذليل تجاه نفسه ..
كان يسرد قصة حياته كما لو كانت لا تعلم عنه شيئاً .. بدا غريباً
وهو ينتفض فى ثورة ثم يتهاك فى مذلة وكأنه ينفذ عن نفسه غبار
الخطيئة أو يحاول ذلك .. كان ناقماً على الحب والأيام، على اليتيم
والحرمان .. على الناس ونفسه .. اهتزت للعنايته المتتابعة وهى
تخفى تحت جلدها رجفة خوف، وكأنها تتوقع أن يصيبها باحداها
ولكنها استطاعت أن تتماسك بالرغم من قسوة المفاجأة عليها، بل

حاولت أن تحتفظ على وجهها باسارير هادئة حتى تساعد على الأمان. ولكنه كان كالزلازل الذى بدأ ولن يوقفه إلا دمار نفسه. مما جعلها تخرج عن صمتها دون أن تدري وفاجأته قاتلة :

- لا تحاول أن تلمس المعانير لنفسك .. أنت المسئول عن كل ما حدث لك.

التفت إليها متأهبا للدفاع عن نفسه :

- أنا المسئول عن خيانتها .. وعن خطيئتها .. هل أنا المسئول عن ظلم الأيام لى ومطاردتى المستمرة بشبح الحرمان والخوف .. أنا السبب فى ظروفى فتتساقط تباعاً مع أيامى كأوراق الخريف .. هل أنا ..

ولكنها تقاطعه بحدة بعد ما تأكدت من أنه ينصت إليها :

- كنت تلهث وراء رغباتك المكبوتة .. بهرتك حياتك الجديدة وظننتها قمة السعادة .. استسلمت للخطيئة ثم بدأت تبحث لها عن مبررات .. فقأت عيون الرضى لتحملق بعيون الآخرين .. فلم تحسن الاختيار .. أليس كذلك ؟

أخذته الدهشة لثورة بشرى وسكن برهة يستجمع فيها أفكاره ثم أجاب :

- أنا حاولت أن أتخلص من وحدتى .. حاولت البحث عن انتمائى .. أن يكون لى وجود واسرة تخصنى وحدى كالأخرين .. كيف لم أحسن الاختيار .. أنا لم الجأ إلى بيت من بيوت الدعارة، بل سلمت قلبى لإنسانة من أسرة لها احترامها .. أسرة لها من العلم والثقافة شأن كبير .. أسرة تعيش عصرها بكل معانى التحضر والتحرر .. اليس هذا من شأن الأسر الكريمة .. أنا لم أخطئ الطريق وإنما القدر هو الذى يقف دأما لى بالمرصاد. وكأن قد كتب على أن أعيش وحيدا تنعسا .

بدت وكأنها تحاوره لتتصل إلى أمر يرضيها .. وقالت
بإنفعال:

- فرق كبير بين التحرر الذى تتحدث عنه وبين التسبب الذى تعايشت معه. لا أحد يقبل التزمت والكبت .. أى فتاة اليوم تذهب للنادى .. تعمل .. لها صديقات وأصدقاء .. تمارس هواياتها .. ولكن .. وهى مدركة تماما بأن الحرية لها قيود لا ترحم إذا تجاوزتها فلن يكون مصيرها خيراً من صديقك أحلام.

- أنا حاولت أن أوضح لها تلك الأمور.

- أنت حاولت .. ولكنك لم تدافع عن حبك .. لأنك نفسك كنت تريد الخوض فى التجربة .. وربما أعجبك الفكرة.

استشاط مرة أخرى وهو ينهض من مكانه قائلاً :

- أنا اعرف السبب فى كل ما حدث .. أنها هدى .. تلك
اللعيونة اللعوب سأجعلها تتدم على حياتها .. سأدمرها كما حاولت
تدميرى .. سوف ..

ولكنها تقاطعه بحزم لم يعهده منها من قبل :

- كفى .. كفى سعيًا وراء الوهم .. كفى بحثاً عن الضياع ..
لقد مضت سنوات طويلة وحان الوقت الذى يجب فيه أن أقول كلمتى
.. أن أطلب بالأنفصاح عن وجودى .. ولن أدعك تقدم على هذا
الهراء .. إلا إذا كنت مازلت تحبها ..
- أنا لا أفهمك يا بشرى ..

اسقطت نظرتها إلى الأرض .. وإجابتي فى همس كأنها تحدث
نفسها :

- أنا أدافع عن حقى ..

أقترب منها بهدوء حيث أزعجه انفعالها .. متسائلاً :

- تدافعين عن ماذا يا بشرى .. هل ..

التفتت إليه صارخة بصوت يغلفه الاتنين :

- أدافع عن حبيبى لك .. لأنى أحبك .. أتعلم .. أحبك ..

و .. انطلقت بسرعة خارج الغرفة وهى تقفز فوق درجات
السلم وكأنها تسعى للانتحار من فوقه ..

تركت كلماتها الأخيرة لتخترق مسام كيانه وتحتمى فى قلبه ..
كانت نبضاته تدق بعنف فتتدفق منها أحاسيس جديدة سرت فى
شرايينه فى تألف غير متوقع .. وإن كان لم يكن فى الحسبان ذات
يوم .. ولكنه كان أملاً يصعب تحقيقه بالنسبة إليه. وخاصة إنها أبنه
العم الذى قام بتربيته وإحتضانه بعيداً عن دوامات التشرد .. ولكن
المفاجأة أنتزعت من تفكيره أحداث الماضى القريب بل وأخمدت
ثورته وهياجه.

تراجع برأسه على مسند المقعد، وراح يستطلع الأفق البعيد
كأنه يبحث عن إجابة لتساؤلاته لعلها تأتبه من الغيب

.. هل تحبنى حقاً، أم إنها تحاول إنقاذى .. هل ستغفر لى ذلك
الماضى اللعين.

.. لماذا لم تدافع عن حبها من قبل .. لماذا لم تكشف عنى
ستار الخوف الذى كان يحول بينى وبينها طوال السنوات الماضية ..
هل ستصدقنى يوماً .. هل كنت أحبها دون أن أدرى .. أكون
إحساسى بالضعف أمامها هو السبب فى محاولتى المستمرة للهروب
من الاستجابة لمشاعرها نحوى .. أوافق عمى .. يا إلهى .. انكلمنى
الشجاعة لاتخاذ القرار.

بدا الإرهاق مسيطراً عليه وهو جالس فى شقة عمه وقد قضى
الانتظار على البقية الباقية من مقاومته، كادت تقضحه عيونه الذابلة
حتى أن زوجة عمه تساءلت إن كان مريضاً أو فى احتياج إلى عون

.. ساعات طويلة قضاها وهو يقطع بها الليل وأغلب النهار مفكراً فى قراره، وبالرغم من كل الهواجس التى تقاذفته إلا أنه بدا مطمئناً لقراره، وسعيداً به حتى ولو انتهى لغير صالحه.

أجتاح كيانه إحساس بالخوف بمجرد ظهور عمه أمامه، ولكنه تمالك فى أصرار وهو يخبره برغبته فى الارتباط من بشرى .. كانت لحظات قاسية سبقت إجابة العم .. شعر بها وكأنه فى إنتظار حكم بالإعدام على جريمة هو غير مرتكبها .. تذوق مرارة الظلم وهو يزدرد ريقه وقد نكس رأسه قليلاً وكأنه يحول بين صدره وبين طعنة أخرى قد لا يحتملها فتصرعه.

تقدم العم منه بثبات ، ثم وضع كفه على كتفه برفق قائلاً :

— الآن فقط إذا مت فسأشعر بالاطمئنان على بشرى.

انتفض بقوة لا يعرف مصدرها.

— أحقاً يا عمى .. أقبلت إرتباطى ببشرى

تداخلت ضحكة العم وزوجته التى لاحقته قائلة :

— لولا خوفى من عمك لكنك فاتحتك فى الأمر لتقدم

عليه..و..

ويقاطعها زوجها وهو يوليه ظهره متجهاً إلى مقعده ثانية :

– أنت شاب لديك كل مواصفات الرجل المسئول . كنت أراقب تصرفاتك منذ فترة طويلة وفى كل مرة أزداد إعجاباً بك .. كنت سعيداً بأخلاقك وبإتزانك ..

ولا أخفى عليك كنت أنتظر منك البادرة حتى يطمئن قلبى.

تلفت عمرو حوله كأنه يخشى أن يتدخل إنسان آخر فجأة ويبلغ العم بأنه كان مخدوعاً فى أخلاقه وفى تصرفاته .. ولكنه سرعان ما هدأ عندما خرجت إليه بشرى وعلى شفيتها إبتسامة الرضى وكأنها تشد من أزره ثم جلست تحيطه بنظرة هائلة غاصت متسللة إلى أعماقه فى حديث صامت طويل.

قال فى نفسه :

.. ترى ماذا يدور فى عقلك يا بشرى.

وسرعان ما استعاد واقعه أمام ضحكة عمه المجلجلة وهو يقول:

– على كل حال أمهلنى بضعة أيام للتفكير فى القرار .. هذه الأمور لا تؤخذ بتلك السهولة .. فما يزال أمامنا مشوار طويل .. الحديث عن المهر والشبكة .. و ..

استطرد فى الضحك من أعماقه وهو يواصل قائلاً :

– والسؤال عنك يا أستاذ عمرو

ومرة أخرى تتسحب الدماء من وجهه مختلساً نظرة سريعة
إلى بشرى التى بادرته بابتسامة رقيقة، ثم لحقت بكلمات أبيها قائلة :
— وأنا من رأيك يا أبى .. يجب التحقق من كل شيء .. فربما
يكون له ماضٍ ..

وبسعادة بالغة عقب العم قائلاً :

— ممكن التجاوز عن كل شيء .. ولكن بشرط واحد فقط.

تجمعت كل حواس عمرو فى أنفيه فى إنتظار ذلك الشرط،
ويسارع العم متظاهراً بالجدية قائلاً :

— أن تذهب معى غداً إلى البلد لنرى ما حدث فى حساباتنا.

تراخت أعصاب عمرو وهو يجيب :

— ساكون جاهزاً فى الصباح ياعمى ..

ولأول مرة يشعر عمرو بأنه ينتظر شيئاً قد سعى إليه ..
سنوات طويلة مضت وهو يترقب ما وجود به الغيب ولا يملك غير
الإقرار به، لأنه غير قادر نفسياً على تحديد ما يريده .. كان مستسلماً
لا مسالماً، حائزاً لا مفكراً .. يعيش غير متعايش .. مكابراً لا مكافحاً
.. مقهوراً لا مطيعاً .. كان غريباً بين الأقرباء .. وقريباً وسط
الغرباء .. مقيداً .. كان يشعر بأنه شاهد على المجاميع ولم يكن طرفاً
.. سنوات طويلة وهو يعيش على هامش الحياة .. كيان متحرك،

وجسد له نبض، ولسان له صدى، وعيون ترى ولا تشعر، كان كياناً بلا ظلال.

ولكنه فى هذه الليلة شعر بأنه قد ولد من جديد، تذوق الأمل بحلقه قبل أن يستوعبه بفكره .. وكأنه تخلص فجأة من كابوس عنيد قد جثم على صدره طوال ليل متصل مع الأيام .. شعر بأنه واحد بين الآخرين .. وكالآخرين له حق القرار والاختيار.

ومن أجل هذا كان مشرقاً فى صباح اليوم التالى. سعيداً بنفسه مزهواً بوجوده .. بدت خطواته على السلم وكأنها مطارق فوق رؤوس الخطيئة، كان لذقاته على باب عمه رنين لم يعهده من قبل، وأبتسامته تفوح منها رائحة الأمل والأمان .. لم ينتظر طويلاً .. كان عمه أكثر بشاشة وتفاؤلاً عند استقباله كان هو الآخر فخوراً بحصاده .. سعيداً بذلك الغصن الأخضر الذى طواه تحت رعايته سنوات ليست بقليلة حتى أينع وبات شاباً تتضح الرجولة من عينيه وبارده بحنان قائلاً :

- هيا يا ولدى حتى نلحق بالقطار ..

وما كادا ينتهيان معاً من درجات السلم حتى استوقفهما جمع من الرجال الغريباء وأحاطوا بهم .. ثم تقدم أحدهم من عمرو قائلاً فى جدية :

- أنت عمرو مصطفى حسن ؟

- نعم أنا ..

- السيد وكيل النيابة يريدك فى أمر ما ..

تحشرجت الحروف بين شفتيه وهو يهمس مصدوماً :

- أنا ؟

التفت إلى عمه الذى تصنم فى مكانه والدهشة تعصف بوجهه،
ثم تمالك نفسه بصعوبة وهو يستطرد متسائلاً :

- هل لى أن أعرف السبب ؟

- فى الحقيقة لا أعرف .. لقد حضرت بناء على إشارة
بإستدعائك ..

تحسس شفتيه بطرف لسانه وأجاب :

- إذن .. تفضلوا وسألحق بكم أنا وعمى .. لأننى ..

قاطعة الرجل بحزم :

- بل سنأتى معنا .. ويمكن لعمك أن يخلق بك فيما بعد.

اهتزت قدماه وهو يستقبل رعشة قوية اعترت جسده بعنف ..
وتحرك من خلال دفعة خفيفة من يد الرجل، استقل السيارة التى كانت
فى انتظارهم .. تلفت حوله فى وجوم، التفت نظرتيه بعين عمه
المرتعبه .. انتبه إلى نفسه وهو محشور وسط المجموعة لا أحد
يحدثه ولا أحد يلتفت إليه .. وأنكمش القوام الفسارغ ، وذبلت
النظرة اللامعة واضطربت النفس الهادئة .. وشل تفكيره وهو لا
يعلم شيئاً غير أن السيارة قد تحركت به، وبأنه قد بات فجأة بعيداً
جداً عن عمه الذى تصلب فى مكانه دون حراك يتابع السيارة
حتى توارت تماماً من أمامه.

كان يسير بخطوات متهاكة بين رجلين فى الردهة الطويلة ..
ثم تقدم أحدهما إلى غرفة جانبية ليظهر بعدها قائلاً :

- تفضل .. السيد وكيل النيابة فى انتظارك ..

لم يستطع أن يتبين وجه المحقق جيداً حيث كانت الرهبة تغشى
عينيه عند دخوله المكتب .. جلس بإشارة صامتة .. وما كاد يتقوه
بكلمة واحدة حتى بادرة المحقق بهدوء قائلاً :

- أنت عمرو مصطفى حسن ؟

- نعم أنا .. هل ..

ولكنه صمت مبتلعاً كلماته أمام النظرة الفاحصة التى شملته
من خلال عيون وكيل النيابة الذى فاجأه :

- هل تعرف واحدة تدعى هدى محمود ؟.

تلقى السؤال وكأنه صفة على وجهه أفاقته من غيبوبة
الحيرة .. وهمس فى نفسه قائلاً :

.. إذن فعلتها اللعينة .. تريد أن تشوه سمعتى وتذلنى .. قدمت
شكوى ضدى مطالبة بالمبالغ التى أفترضتها منها .. تلك العاهرة
سوف ..

ولكنه توقف من جديد على صوت المحقق :

- لم أسمع منك إجابة ..

- نعم أعرفها ..

- ما مدى علاقتك بها ؟

ارتجفت. أسارير وجهه دون أن يتفوه بكلمة .. مما دعا وكيل النيابة أن يعيد عليه السؤال مرة أخرى .. فأجاب :

- كنت ألتقي بها أحياناً ..

- أين ؟

- فى .. فى منزلها ..

- متى رأيته آخر مرة ؟

أجاب بصوت مضطرب وهو يتأهب للدفاع عن نفسه :

- أول أمس .. ولكن ..

لاحقة المحقق فى إصرار .. وقد تبدلت نبرة صوته قائلاً :

- أسمع يا عمرو .. أنت تعرف جيداً لماذا أنت هنا الآن ..

ولذلك أريد منك أن توفر على وعلى نفسك المراوغة غير المجدية ..
وعليك أن تذكر لى كل التفاصيل ..

ثم أشعل سيجارة وكأنه يستعد للاسترخاء أو الانصات الطويل .. واستطرد متسائلاً فى برود :

- هه .. كيف قتلتها .. ولماذا ؟

انتنفص عمرو فجأة وكأنه مسه الجنون .. وأقلنت من شفثيه
صرخة مستغيثة :

- ماذا .. أنا ؟

ولكن وكيل النيابة يوقفه بإشارة بيده توحى له بالجلوس مرة
ثانية .. ثم إزداد فتوراً وهو يقول :

- لو كانت هذه التصرفات تجدى .. ما كان أحد الآن ينال عقابه من أى جريمة يرتكبها .. فلا داعى للمراوغة وأذكر لى كيف قتلتها .. ولماذا ..

- أقسم لك إنى لم أقتلها .. ولماذا أقتلها ؟

- أنت وحدك تعرف السبب ..

- أى سبب .. لم يكن بيننا شىء .

وقف المحقق هذه المرة وبادرة كأنه ينقض عليه :

- ألم تكن تحبها ؟

- لا ..

وهى .. أكانت تحبك ؟

سارع قائلاً :

- لا أعتقد .. فقد ..

ولكنه يقاطعه بالحاح :

- إذن ما هى طبيعة العلاقة بينكما .. فكلكما لا يجب الآخر

.. فلا بد من أن بينكما مصالح أخرى .. هل كانت لك علاقة بتجارة العملة أيضاً ؟

رفع رأسه إليه وبدا وجهه شاحبا وهو يقول :

- أنا لا أعرف شيئاً عن هذه المواضيع .. أنا لم أقتلها .. هى

كانت متعددة العلاقات .. ولها رحلات غريبة ومريبة .. أنا ...

ومرة ثانية يوقفه :

- أين كنت مساء أمس ؟

- فى أى ساعة ؟

- بعد العاشرة مساء ..

- فى حجرتى ..

استدار ليجلس على معقده ثانية ثم قال :

- هل يمكنك إثبات ذلك ؟

وكادت أن تقلت من عمرو كلمة تزج باسم بشرى .. ثم أجاب

بهدهوء :

- كنت نائماً ..

- المعلومات عنك تؤكد بأنك لم تعد العودة إلى منزلك كل

ليلة قبل الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً .. فلماذا بالأمس بالذات ؟

- ماذا تقصد ؟

وعاد المحقق لهدهوءه وهو يقول مستتجاً :

*- أقصد إنك ارتكبت جريمتك ثم عدت إلى المنزل متسللاً دون

أن يراك أحد ..

- لم أقتلها .. لم أقتلها ..

لم يعرفه المحقق انتباهاً، وضغط على زر بجواره ظهر بعدها

أحد الرجلين المنتظرين بالخارج .. ثم التفت إلى عمرو قائلاً :

- انتظرنى بالردهة الجانبية إلى أن أيت فى أمرك ..

. وبصعوبة نهض عمرو من مكانه، وبدأ يخطو بجوار الرجل بخطوات أقرب للزحف، وما أن غادر الحجرة إلى الردهة الجانبية حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام مجموعة تتبأ بمعرفتهم من خلال تواجد أحلام .. وأدار عينيه للطرف الآخر حيث كان عمه جالساً فى وجوم وقد جاوره شيخ مسن لم يصعب عليه معرفته من خلال العصا التى كان مستنداً عليها وأدرك أن الجد أمين جاء بدوره وراء عائلته الصغير. ليطنن عليها.

توخى مقعداً منفرداً وجلس فوته وهو يختلس بعينه النظرات تجاه المجموعة الواحد تلو الآخر.

بدا على وجه فارس أمين أنه الآخر قد حامت حوله الشبهات وبأنه قد فقد القدرة على التفكير من كثرة محاصرة أسئلة المحقق الذى فاجأه بالصك الموقع منه الذى وجده فى حقيبة القتيلة، مما حرك المؤشرات تجاهه بأنه القاتل ليتخلص من دينه ويسترد الصك.. ولم يستطع فارس أن ينفى التهمة عن نفسه بالرغم من كل محاولاته التى كلفته الكثير أمام أبيه وأبنته، لقد كان إحساسه بالخطر أقوى بكثير من تمالكه أو محاولة المراوغة فتحدث كثيراً .. وكشف عن حقيقة الأمر تخلصاً من الورطة الأكبر. وتحدث عن إجتماعه الأخير فى شقتها مع توفيق بك وبها فى وجود زوجته فتحية .. والنتيجة اذى أنتهت بها تلك الجلسة من تهديد ووعيد ومن رضوخ ومذلة ومن دوامات الحيرة التى سقط فيها، ومن طاحونة الحقد التى راحت تديرها هدى فوق رأسه إنتقاماً من أحلام فى شخصه، كلها أمور جعلته فى النهاية يجلس وهو مغمض الجفنين وكأنه يخفى عن الآخرين حقيقة ما يجيش

فى صدره من أحاسيس بالمنذلة والعار .. المنذلة التى سعى إليها
بارادته والعار الذى لطحته به ابنته الوحيدة تحت شعار التحرر
والتمدن .. فأغلق عينيه حتى لا تكشفه نظرة الندم المقهورة وسكن
صامتاً فى هدوء وكأنه لا يرغب حتى فى الدفاع عن نفسه، وكان
الموت بات أقرب إلى رغباته من الحياة بعد ذلك فى مواجهة الدمار
الذى لحق بأسرته.

حاول عمرو أن يلفت نظر أحلام نحوه، لعله يستطيع أن
يستزيد استفساراً من خلال نظرتها ولكنه فشل فى ذلك، لانشغالها
تماماً عنه، حيث كانت مسلطة نظرها تجاه هشام الذى أتى بدوره هو
الآخر كواحد من الذين تربطهم علاقة قوية بالقتيلة .. كانت أحلام
تحاصره بعينيها وكأنها تلقى عليه بسمولية ما حدث، كان لا شىء
يثير قلقها غير ما كان بينها وبين هشام .. فلا مقتل هدى ولا إتهام
أبيها ولا الإعدام الذى قد ينتظر عمرو .. لاشىء يشغل بالها غير
هشام، كانت تفكر فى أشياء كثيرة .. تريد أن تنقض عليه لتبتر لسانه
الذى أسمعها أعذب الأمانى .. أن تفقأ عينيه التى طالماً أحاطتها
بالحنان، أن تكتم أنفاسه التى داعبت أنفها حتى استسلمت لأحضان
الخطيئة معه .. تريد أن تحته على أى شىء .. أن يصرخ أن ينتحر
أو يركع نادماً .. تريده يقدم على أى شىء .. يقف معترفاً بذنبه ..
أو يتقدم لطلب يدها، يطلبها من نفسها فهى فقدت أنتماءها للأخزين كما
فقدت من قبل أحترامها للجميع .. ولهذا بدت شاردة وهى تحاول أن
تستقطبه بنظراتها.

مزقه أحدهم الصمت منادياً :

- السيدة فتحية عبد الفتاح ..

حاولت أن تبدو متمسكة وهى تجيب :

- نعم ..

- تفضلنى عند السيد وكيل النيابة

دخلت .. مارست كل فنون الكلام أمامه، أنكرت علاقتها بأى
شئ وبكل شئ، تفت كل ما يمكن نفيه .. وأمام سؤاله عن طبيعة
علاقتها بهدى .. قالت :

- كانت سيدة ظريفة .. إجتماعية .. لها معارف كثيرة .. لا
أعتقد أن لها أعداء .. كنت أعاملها كأخت صغيرة، لم يكن بينى
وبينها ما يثير الشبهات ..

صممت برهة استغفرت فيها ذكاءها عندما فاجأها المحقق قائلاً:

- وماذا عن علاقتها بزوجك .. وبالشيك

- لا أرى

- ألم تثر غيرتك من قبل وبجراحة لا تظهر من داهية مثلها ..
أجابت بتلطف :

- لست قبيحة لهذه الدرجة

- ما هى طبيعة علاقتك بتوفيق النادى

- علاقة عمل

ابتسم المحقق بهدوء وهو يقول :

- وظيفتك كمديرة للعلاقات العامة تتضمن فى إختصاصاتها
تجارة العملة .

- أنا لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع .. و ..

وكأنها تملك القدرة على قراءة أفكار المحقق، فكان لها لكل
سؤال جواب ولكل حصار منفذ .. بدت هادئة إلى حد الإثارة، حتى
إنها استقبلت فى النهاية قرار التحفظ على زوجها وكذلك عمرو بفتور
غريب أثار دهشة المحقق نفسه، بينما خرج فارس أمين عن صمته
بعد رحلته الطويلة مع الشرود وراح يردد على مسامعها وهو فى
طريقه إلى التحفظ قائلاً :

- عليك اللعنة .. أنت السبب .. أنت السبب ..

فى الوقت الذى حاول فيه عمرو الاقتراب من عمه وهو
يتحامل على نفسه ليبدو فى صورة المتماسك .. ثم همس :

- صدقتى يا عمى .. أنا برىء

ولكن العم اشاح بوجهه عنه كأنه يخفى الحسرة المريرة التى
سكنت مقلتيه وهو يرى ابن أخيه الذى تولى رعايته يوماً بعد يوم
وهو يساق إلى حيث يكون القتلة أو المجومون ..

★ ★ ★

كتمت بشرى صرختها وهى تبثع مرارة الحسرة والظلم فى جوفها .. كانت تراقب ثورة أبيها وهو ينقل بدوره ما علمه بشأن عمرو .. بدا فى زمجرته كالرياح التى تعصف بكل شىء .. ثائراً كالبركان البكر الذى طال انتظاره للانفجار، هائجاً من جراح غائرة فى شرفة وعرضه .. نادماً كالعائد من غيبوبة فشل طويلة.

حاولت ألا تصدق ما تسمعه .. لم تعد ترى غير الصورة التى فى خيالها ووجدانها .. ولكنها الحقيقة.

الحقيقة التى جعلت من أبيها يستسلم لمدامع الحسرة على أين أخيه والتى جعلته يؤكد بأنه كان مخطئاً فى اختياره. الحقيقة التى ألقت بها وسط دوامات الظنون والشكوك.

كان صوت الأب مجلجلاً وهو يردد فى صراخ :

- لقد خدعنى .. خدعنا جميعاً .. كان فاسقاً سكيراً .. الآن أصبح قاتلاً .

ويلتفت إلى بشرى مستطرداً :

- أغفرى لى يا ابنتى .. كدت أفرضه عليك .. أحمد الله أنك
لم تصبى زوجة لهذا القاتل .. لم أكن أعلم أنه مشحون بالعقد
والأحقاد.

ثم يعود فى كلمات هستيرية وكأنه يحدث نفسه :
- أنا لم أقصر معه قط .. لقد أوليته كل رعايتى، ولكنه ليس
منا .. أنه قاتل .. قاتل ..

توارت بشرى ببطء، وكأنها تسعى للإنسلاخ من ذلك الموقف
العصيب، وبدأت تسجيب لاجساس غامض تسلل فجأة إلى أعماقها ..
كأن يضغط على صدرها بعنف وكأنه دقات من الماضى تتوالى على
رأس الذكريات .. خرجت للطريق وهى تستقطب الهواء بقدر رثتها
.. استعادت من ذاكرتها الموقف الأخير الذى جمع بينها وبين عمرو،
واقتربت صورة اعترافاته عن آخر لقاء بينه وبين أحلام .. و .. ما
أن قفز إلى مخيلتها ذلك الموقف حتى اجتاح كيائها نداء خفى مردداً :
- ولم لا ..

وتحركت خطواتها تحت تأثير نوازع مبهمه .. بدت شاردة
وهى تتفحص الوجوه من حولها .. كثيرة الالتفات فاقدة للاتجاهات،
كانت تبحث عن شيء ليس له تجسيد ولا كيان .. تبحث عن معنى
ليس له حدود ولا بنيان .. بلا طعم ولا رائحة ولا ألوان .. كانت
تبحث عن الحقيقة.

وزداد الصوت فى أعماقها بوضوح أكثر :

- لم لا ..

لم تتردد وهى تستقل السيارة الأجرة، وكأنها أمام قرار ليس له بديل .. ألتحمت قلبها نبضة مرتجفة وهى تقف أمام منزل أحلام بالمهندسين، ولكنها سرعان ما تغلبت عليها ملممة لشتات توازنها وهى تصعد درجات السلم .. مضت لحظة متوترة أمام شقة هدى، خيل إليها أنها تسمع صراخاً من الداخل تحول صدها إلى قشعريرة شملت كيانها.

ومرة ثانية وجهها لوجه مع أحلام .. كانت المفاجأة عنيفة .. والاستقبال فاتراً يخفى فى طياته العديد من المشاعر .. من خوف وكبرياء، وسلام وإنقاذ، وخير وشر، كان لقاء بين تقيضين بالرغم من اشتراكهما فى مسار واحد.

بدت أحلام أكثر حنكة وهى تبادرها بقولها بعد ما أجلستها فى حجرة الاستقبال :

- هل لى أتساءل عن سبب هذه الزيارة الغريبة ؟ .

- أعتقد إنها زيارة طبيعية .. وأنت بالتأكيد تعلمين سبب وجودى هنا.

حاولت أحلام أن تبدو هادئة وهى تقول :

- إذا كان الموضوع يخص عمرو .. فأنت تعرفين مكانه..و..

قاطعتها بشرى فى انقضااض :

- بالمناسبة .. أحب أن أعلمك بأن عمرو قد نكر لى كل شىء
عن الليلة السابقة للحادث ..
- لازلت لا أفهمك ..

وجدتها بشرى فرصة لكى تتأملها .. وكأنها تبحث عن العينين
اللتين سحرنا عمرو وعن الابتسامة التى أغدقته بالحنان .. وعن
الصوت الدافىء والقوام الغائن كأنها تبحث عن السر فى كل شىء ..
فلم تجد شيئاً .. أو أنها لم ترد أن تجد شيئاً من هذا القليل .. فلم تر
غير وجه قبيح وشفيتين لم تستطيعا أن تخفياً أنياباً شيطانية، وعيوناً لا
تحوى غير الشر والكراهية، وجسداً مترهلاً مضغوطاً وصوتاً أجش
مزعجاً .. هكذا طاب لها أن ترى ..

ثم أجابت بحدة مكتومة :

- أقصد أن هناك ألف مبرر يجعلك تقدمين على هذا التصرف.

- أى تصرف !!

نهضت فجأة قائلة :

- أن تقتليها مثلاً .. أن تتخلصى من منافستك التى تعرف عنك
الكثير وعما أصابك أكثر ..

وهنا نسيت أو تناسيت أحلام كل الظروف المحيطة بها ..
قبرت في ذاكرتها أن أباها متحفظ عليه، نسيت كل هذا وراحت تفهقه
وكانها تولول .. كانت تضحك في هستيريا تعمدت أن تبالغ فيها .. ثم
صمتت فجأة وملأت نظرتها بكل الحقد والكراهية قبل أن ترسلها نحو
بشرى .. قائلة :

- لم يكذب عمرو .. عندما صورك لى بلإك إنسانة غبية ..
تافهة .. أنت تحاولين استجداء حبه مقابل كرامتك .. لأنك بلا كرامة
.. وإذا كنت أنا قتلت هدى فعلاً .. فعمرو قتلنى قبل أى شىء ..
قتلنى بعجزه .. قتلنى بسلبية تجاهى .. أما أنت فلا لوم عليك لأنك
حقاً إنسانة تافهة تعيشين فى توقع على هامش الحياة .. إذا كان لك
حياة .. و ..

واتجهت نحو الباب صارخة فيها :

- والآن أخرجى من هنا وابحثى عن أنيس آخر .. أخرجى يا
مسكينة .. فأنت ..

وكان زلزالاً قد هوى بكل شىء فجأة، جعلها تبتلع الكلمات
أوتموت فوق شفتيها عندما ترمى إليها صوت جدها القوى صائحاً
فى حزم بالغ :

- كفى ...

وظهر من غرفته وهو يمسير بخطى ثابتة مقترباً منها قائلاً :

- كنت أعتقد أنك فقدت الأخلاق فقط .. أو إنك فقدت احترام الآخرين فقط .. ولكنى لم أتصور أنك أصبحت بليدة بلا قلب أو شعور .. و ..

ثم التفت إلى بشرى مستطرداً :

- أعزبها يا ابنتى .. فالكرامه والإباء فى نظر أمثالها هو الغباء بعينه، والشرف والاتزان يمثل بالنسبة لهم التقافة .. إنهم اعتادوا على التبجح واللامبالاة .. الحرية لا تحمل إلا مفهوماً واحداً لديهم .. هو التسبب .. إنها ..

ولكنه توقف عن الكلام على أثر مباغته أحلام لبشرى وهى تتدفع نحوها فى محاولة لصفعها على وجهها بقوة .. وصرخت :

- أتسبنى يا جدى من أجل هذه الحقيرة .. أخرجى يا ضائعة من هنا .. أخرجى وإلا ..

ولم تستطع أن تكمل من قسوة اللكزة العنيفة التى تلقتها على صدرها من رأس عصا الجد الفرعونية وهو ينهرها بغضب :

- لا فائدة .. لقد تأصلت جذور الشر فيكم جميعاً .. ترمون غيركم بالحدق وهو يسرى فى عروقكم. تحاملت أحلام على نفسها واعتكلت فى وقفاتها وهى ترمقه بنظرة وكأنها تنفث سموم الحدق عليه .. ثم قالت بصوت أمتزج بدموعها :

— أكرهك .. لقد صدق أبى وصدقت أمى عندما قالا إنك
كبرت وأصبحت مخرفاً .. انت حقاً مخرف ومجنون أيضاً .. إنك...

ولكنه يوقفها بإشارة من يده وقد انسحبت الدماء من وجهه
وارتجفت شفتاه وهو ينظر إليها بعين أصابها الذبول فجأة .. وهمس
بنبرة مضطربة :

— لا داعى لأكثر من هذا يا ابنتى .. لقد انتهى كل شيء .. أنا
لست الآن غاضباً منك ولا من ابنى وزوجته لأنكم أصبحتم غرباء
عنى .. وقد أكون أنا الغريب عنكم.

مضت لحظة صمت، مات فيها كل شيء حتى التفكير ..
ودبت الحياة بعدها عندما تحركت بشرى بهدوء وهى منكسة الرأس
فى ذهول مما تراه وكأنها تسترجع فى خيالها صورة أبيها بقامته التى
تكاد تلامس سطح السماء فى نظرها .. ولكنها توقفت مرة ثانية
عندما استوقفها الجد قائلاً :

— انتظرى يا ابنتى .. أنا راحل معك .. المهم أن أبعد بك عن
هنا .. المهم هو أنت .. فلم يعد لى متسع من الوقت .. ولا العمر ..
انتظرى لكى أتكىء عليك ..

كان قرص الشمس ملتهباً وهما يسيران فى صمت على
الطريق، وكأنهما غريبان قد ساقتهما الأقدار إلى دنيا غير دنياهما،
أوشريدان قد فقدوا مأواهما فجأة من خلال زلزال غادر دمر كل شيء

حوله، ولم يبق على شيء غيرهما، فمشيا يبحثان عن هويتهما .. كانا غرباء فى دنيا غريبة.

وفى النهاية وصلت بهما خطواتهما إلى حديقة كبيرة قد احاطت بها الأشجار العريقة من كل جانب .. كان يدب بعصاه على الأرض بضربات قوية حتى أن بعضها كان ينقد إلى الطين كأنه يتلمس شيئاً باحثاً عنه، بينما كانت بشرى تسير بجواره فى خشوع ورهبة وقد جمع بينهما حديث صمت طويل .. وعند ربوة قد ارتفعت قليلاً عن أرض الحديقة توقف الجد فجأة وكأنه قد خطا ما خطا حتى يصل إليها والتفت إلى بشرى قائلاً فى طيبة :

- هذا أفضل مكان يمكننى أن أحدثك عنده.

لم تعلق على كلماته ، واستجابت لطلبة دون إيداء أى اعتراض أو استفهام .. ثم عاد مستطرداً :

- هل تعاهديننى يا ابنتى ؟

لاحقته دون تردد :

- أعاهدك ..

ترقرقت ابتسامة حانية على شفتيه وقال :

- ألا تنتظرين حتى تعلمى ما تعاهديننى عليه ..

ورفعت عينها إليه .. ثم أجابت :

- مثلك لا يطلب العهد .. إلا من أجل شيء عظيم

- قال بلاتررد فانصنى يا غالية .. لقد سمعك وأنت تتحدثين مع ابنة ابنى .. وكانت كلماتك كأسمك .. بشرى .. أحسست من خلالها بالأمل، وخاب ظنى بأن الدنيا قد انتهت منها كل شيء .. كنت أراك بأذننى وأسمعك من ذاكراتى وذاتى.

- أنى أشعر بالذنب لما حدث لك الآن .. ولا أعرف كيف يكون اعتذارى ..

ربت على كتفها برفق .. وقال :

- لا تعتذرى .. ولكن واصلى مسيرتك.

- أى مسيرة ؟

- الشرف .. والعزة .. والإرادة .. يا ابنتى لقد علمت كل شيء بالصادفة .. وأنا لا أريد أن أتدخل فى حياتك الخاصة .. ولكن من واجبى أن أرشدك لحقيقة قد تكون غائبة عنك بحكم سنك الصغيرة .. ونشأتك الكريمة ..

حاولت أن تقول شيئاً .. ولكنه استطرد فى إصرار :

- لاند علمت بالصلة التى بينك وبين عمرو .. كما أننى أعلم شعوره نحوه، ألا أننى لا أعرف إحساسك نحوه.

سارعت بلا تردد :

- أنا أحبه .. و ..

قاطعها بحزم :

- وهو .. لا يحبك ..

- أنت تتصور أنه مجرم .. وأنا متأكدة من براءته.

- أنا لا أتحدث عن ادانته أو براءته .. أنا أتكلم عنك أنت ..

قلبك البريء وعاطفتك القوية الصادقة جعلتك ترين الدنيا وكأنها بلا
خطيئة .. كم يؤسفني أن أخبرك عن أشياء قد تؤلمك.

أستفزت كل حواسها وهي تنظر إليه في ترقب، بينما أشاح
هو بوجهه عنها في نظرة بعيدة كأنه يستعيد صورة باهتة من العالم
الأخر، ثم أرفف :

- هذا الشاب كنت اراه يومياً وهو يتسلل إلى شقة هدى

كالصوص .. كما أنني كنت ..

ولكنها لاحقته في براءة :

- كانت نزوة ..

- وأحلام .. أكانت نزوة هي الأخرى ..

- أكتشف خديعتها له ..

شعر بالاحباط وهو يتساءل في همس :

.. وأنت ..

اهتزت أهدابها وكأنها لم تتوقع أنها طرف فى هذه العلاقة ..
وأجابت :

— أنا .. أنا أحببته منذ الصغر .. كنت أرى فيه القوة
والعزيمة .. أرى فيه للشهامة والطيبة .. أحببت إصراره وصموده ..
كنت أعلم أنه يخشى أن يتقدم لطلبنى فيرفض أبى ونكون القطيعة
بينهما .. كنت أشعر بحبه من خلال نظراته الصامته .. كيف بعد كل
هذا تطالبنى بالانسحاب ..

رفعت عينها إليه وأكملت :

— أنت تتحدث لصالح أحلام حفيدتك .. تحاول أن تتخذ أبنيك من
حبل المشنقة فتتهم إنساناً برىء لا ذنب له .. أنا سأشهد بكل ما حدث
.. سأخبر الجميع أنني كنت فى حجرته ليلة الحادث، كان يحدثنى عن
نوبته .. لقد أعترف لى إنه كان مخطئاً .. لا يمكن أن أصدق ما يقال
عنه .. لا يمكن أن أخدع نفسى .. ولا أبيع ضميرى وحبى .. أنا ..
أوقفها بإشارة من يده .. قائلاً :

— انتظرى يا ابنتى .. أنا لا أحاول إنقاذ أبنى .. لقد فأت
الأوان .. هناك أكثر من طريق للموت بغير حبل المشنقة وأنا أشفق
عليه من أيمن لم يرها بعد .. أما أحلام فهى لن تستيقظ من حلمها إلا
فى ليلة بلا قمر وهى أيضاً فى حاجة للشفقة .. فما أقصى يا ابنتى
من ليل لا يتبعه نهار.

- وأنا ..

- هذا يتوقف على قراراك ..

- وأنت .. إلى أين ؟

- أنا أعرف طريقى جيداً .. وأرجو أن يمهلى القدر حتى أصل إليه.

طفرت بين جفنيه دمعة حائرة، كان قد طال سجنها وراء قضبان الصمت ولم يعد فى مقدوره التحمل والتظاهر بالقوة، فأستسلم لها وهى تتساب حتى تلامست مع طرف شاربه، وبدأ يتحرك بخطوة متثاقلة وهو يفرز عصاه فى الأرض كأنه يوقظ البراكين تحتها ..
وردد :

- الوداع يا بشرى .. الوداع ابنتى ..

ترددت وهى تتابعه مبتعداً .. أرادت أن تلتحق به .. أن تطالبه بالبقاء بجوارها، أحست فجأة بأنها وحيدة بلا سند .. تمنّت لو تستطيع الصراخ لعله يستجيب ويعود، ولكنها لم تفعل شيئاً من هذا غير استجابتها لقطرات دمعها الدافىء وكأنه ينبئها بأن الرجل قد رحل .. غاب عن عينيها وهى تشعر برجفات الخوف تتبض فى أعماقها دون أن تعرف من أى شيء تخاف، ولأجل من تخاف، إحساس غامض إجتاح صدرها وهى لا تزال تقف فوق الربوة، تتلفت فى كل إتجاه كالطفلة الصغيرة التى فقدت فجأة من يقوم برعايتها .. كانت تبحث

عن المجهول .. عن القرار الذى وعدت به العجوز دون أن تعرف أسبابه .. كل ما كانت تدرکه هو أن هناك قراراً يجب أن تتخذه، حتى ولو كلفها هذا الكثير ..

وكان قرارها بأن تساند عمرو فى محنته بكل قواها، لم يستطع أبوها أن يحول دون تدفق إصرارها .. حاول أن يثبثها عن ذلك، بأن يثير مشاعرها نحو ابن أخيه .. نكرها بخيانتته بها، وبالإجرام الذى يخفيه تحت جلده .. بالعنف تارة وبالهوء تارة أخرى، ولكنها كانت فى عنادها أصلب بكثير من كل محاولاته .. بكت فى لحظات الضعف وثارَت فى غيرها، لجأت لأملها لعلها تجد من خلالها وسيلة لإقناع أبيها .. قالت بصنق :

كيف يترك عمرو هكذا بدون محام يدافع عنه.

لم تدم مقاومة الأب كثيراً أمام إصرارها .. بدت سعيدة وهى ترافقة للمحامى، وكانت أكثر إبتهاجا لأنها تقدم على تصرف هى مقتنعة به تماماً، كان إيمانها ببراعته مرتبطاً بإيمانها بالحق والخير، وإن كان والدها قد أبدى كثيراً من التحفظات على تصرفاتها الغريبة تجاه هذا الموقف.

ومضت الأيام .. والأحداث تتحرك بما كان متوقعاً وغير متوقع، حيث صدقت أحاسيسها بالنسبة لعمرو، جاء المحامى ليخبرهم ببراعته قبيل أى محاكمة لأن القاتل الحقيقى قد اعترف ..

كانت المفاجأة أقسى بكثير من كل توقعاتها .. لم تستطع أن تكتم صرختها وهي تقول :

.. مستحيل .. الجد أمين ..

أخذها الذهول بعيداً، وبنت كالمسحورة وهي تحادث نفسها .. نسيت كل شيء، لم يلفت نظرها عدم عودة عمرو إلى حجرته، بالرغم من أنها كانت تتوقع ذلك، فهي تعلم أنه لن يستطيع مواجهة أحد بعد كل ما قيل .. لا تصدق كل الأحداث التي مضت عليها، أحست بالاحباط أمام ذلك الخبر الغريب وكأن الدنيا قد انقلبت رأساً على عقب، وتوقفت الأرض عن دورانها، وتساقطت النجوم من جفون السماء ليسبح الكون في ظلام قائم مخيف.

ليال طويلة وصورة الجد أمين لا تفارق خاليها .. كانت تشعر به يحدثها، أحست بكلماته وقد أنطبع على رثتيها، فبدت وكأنها في حوار متصل معه من خلال أنفاسها، حتى جاء موعد محاكمته وهي مازالت تأمل أن يكون الأمر على غير ما سمعت .. كان الخوف ينقل على خطواتها فيجعلها تسير وكأنها تزحف. الطريق إلى المحكمة طويل والحديث مع أعماقها أطول .. هل يمكن أن يكون قاتلاً .. هذا الرجل الذي يتحدث عن الشرف والعزة والإرادة .. هل يمكن أن ينقلب الحب إلى كراهية والحنان إلى قسوة والخير إلى شر .. هل كان يخدعني .. كيف يتحول السلام إلى حرب ودمار فجأة .. يمكن أن يكون شريراً في صورة ملاك .. هل كل الناس أشرار .. كل الناس قتلة .. و ..

ودخلت المحكمة .. كانت القاعة مكتظة وكان البشر قد جاءوا ليشهدوا على ذلك القاتل العجوز الذى غررهم جميعاً .. وغررها هى قبلهم .. مسحت القاعة بنظرة واحدة، استطاعت أن تتبين عمرو من بين الحاضرين، بينما جلست أحلام فى تمرد بجوار أبيها الكسير .. وبعيون خائفة متوترة التفتت فى هدوء تجاه القضبان، أحست بالقشعريرة تجتاح جسدها وهى تراه كعادته واقفاً فى شموخ ممسكا بعصاه فى ثبات، كاد أن يتوقف نبضها عندما أحست بنظرته مسلطة عليها.. لم ينكسر ذلك القيد عنها إلا عندما بدأ يعيد اعترافه أمام هيئة المحكمة مرة أخرى .. كان صوته قوياً وواضحاً .. وفى عينه بريق يعكس شموخاً وإباء يتفقدته الكثيرون ممن هم أحرار خارج القضبان.. واهتزت المقاعد وما فوقها أمام صيحته القوية مسترسلا :

- نعم لقد قتلتها .. قتلتي الخطيئة .. حاولت إنقاذ أبني وأسرتة الصغيرة من الهلاك .. حاولت إنقاذ ماض طويل عشت فيه وعاش من خلاله أجدادى .. نعم قتلتها .. قتلتي رأس الأنعى التى راحت تتفت سمومها على كل أحبائى .. كنت أراهم يتساقطون الواحد تلو الآخر مثل أوراق الزهور التى فى حديقتي بعد أن أهملتها .. و ..

تحول بوجهه تجاه القاعة، فانكمش توفيق بك أمام نظرته وكذلك حاول أن يخفى هشام وجهه بعيداً عندما استطرد الجد قائلاً :

- أنا لست نادما على قتلها.. بالرغم من أننى أرى رؤوس أفاعى لا زالت تطل ولو كان فى مقدورى لحطمتها هى الأخرى دون تلكؤ.. أنا..

ولكن القاضى يقطعها قائلا:

— أذكر لنا لماذا قتلتها إذن.. وكيف؟

— أنا لا أنسى هذا اليوم.. هو يوم فجيعتى فى أحلام حفيدتى.. رأيتها منهاره باكية.. حاولت أن أعرف منها الاسباب، ولكنها أنكرت، لم أكن أتصور أنها قد سقطت فى أحضان الخطيئة.. فوجئنا بطرقات عنيفة على الباب.. أدركت من الصوت أنه صوت تلك اللعينة هدى.. سمعتها وهى تقذفها بأفطع السباب السوقية وتتعمد اذلالها بكل الكلمات المهينة بينما أحلام تبكى فى توسل.. وكانت الطامة بالنسبة لى عندما فوجئت بها تتوعدها وتهدها بأنها سوف تذل أباهها وبأن لديها شيكا موقعا منه بلا رصيد.. أحسست ببرودة جسدى، وظننت فى لحظة أننى أصبت بالشلل.. ظللت فى مجلسى ساعات طويلة أجتز آلامى، شعرت بدموعى وكأنها انقلبت الى جوفى فكانت نزيفا من الدم.

مضت لحظة سكون سيطرت على القاعة، وكأنه يتذكر ما حدث.. فنبهه القاضى قائلا:

— ثم بعد.

— وجدت نفسى اتحرك بلا ارادة.. اتجهت الى شقتها.. كانت عنيدة مكابره.. وجدت نفسى اتضاعل الى حد الانصهار أمام كلماتها اللاذعة، كانت تتحدث عن أبنى وكأنه قواد ولص.. وعن زوجته

وابنته بأفطع الصفات.. وفجأه وجنتها تحاول النيل منى أنا الآخر
وبلا حياء تسبى وتتهمنى بأننى كنت على علم بكل شىء وبأننى كنت
أرتزق من وراء تصرفاتهم.. فلكرتها بعصاى هذه..

و .. رفعها باعتزاز إلى أعلى وهو يواصل صيحاته :

- نعم بعصاى تلك ... لكمها بقوة فى صدرها فسقطت على
الأرض وارتطمت رأسها بحافة المائدة الرخامية، ولكنى فوجئت بها
تصرخ وتولول وهى تقذفنى بما هو فوق احتمالى .. فضربتُها على
رأسها .. نعم أنا القاتل .. لقد قتلْتُ الخطيئة ... ولست نادماً .. و ..

جلس بهدوء وأسند رأسه على رأس أبى الهول وكأنهما
يتشاوران فى حديث طال غيابه .. بينما توقف الهمس تماماً فى
القاعة حتى بعد خروج هيئة المحكمة للتشاور.

كانت الدقائق ثقيلة، ومضت وكأنها تحمل فوق عقاربها هموم،
وأنقال الدنيا كلها وأشرأبت الأعين عند دخول هيئة المحكمة من جديد
.. وبدأ القاضى يسبق حكمه بعدة كلمات أوضح من خلالها مراعاة
ظروف القاتل ثم أعلن قاتلاً :

- حكمت المحكمة حضورياً بمعاينة المتهم أمين عبد العزيز
بخمسة عشر عاماً مع النفاذ.

وتحولت كل العيون تجاه الرجل القابع فى مكانه بثبات، بينما
امتدت يد الحارس لكى توقفه استعداداً للرحيل، وما كاد يفعل حتى

سقطت العصا من تحت رأسه وسقط هو بعدها بلا حراك .. وانطلقت
صيحة مدوية من الحارس :

- لقد مات الرجل ..

احتبست الأنفاس فى ذهول .. لم يتحرك أحد .. الكل فى
سكون وكأنهم فى إنتظار مواصلة المحاكمة .. بينما كان جسد الجد
أمين ممدداً بجوار عصاه وملامح ابتسامة الرضى فوق شفتيه وكان
الموت تغافل عنها فتركها فوق شفتيه كأخر أمل له .

وفجأة دوت صرخة فى القاعة جعلت الحاضرين يفيقون من
غيبوبتهم المؤقتة .. وانطلقت بشرى بعد صرختها نحو القضاة وهى
تردد فى هستيريا :

- لا .. لا يمكن أن تموت .. لا يمكن أن يكون هذا جزاؤك ..
أسمعنى .. لقد عاهدتك .. فلا تمت وسأظل على عهدى .. هل
تسمعنى .. لا تمت .. لا ..

ودفنت رأسها بين كفيها وهى تصرخ صراخاً مكتوباً حتى كسا
الدمع وجهها .. شعرت بيد تربت على كتفيها برفق، وما كانت ترفع
راسها حتى تجمد الدمع بين جفنيها وتشنجت نظرتها إلى عيون عمرو
الذى سحب يده مضطرباً .. وقال فى همس :

- كفى يا بشرى .. وهيا، لقد انتهى كل شيء.

تحركت بجواره وهي تقطع العمر الطويل بخطوات متزنة لا تعبر عن حقيقة ما يختلج في صدرها، وقد تراجعت برأسها قليلاً إلى الوراء وكأنها تتفقد بنظرها من خلال الجدران والعوائق تستكمل حديث الصمت الذي أوقفته الضوضاء والموت وحال بينها وبينه.

وقبل أن ينتهى العمر تردد عمرو يتساءل فى وجوم :

- هل تعرفينه.

ازدد ريقه مرتبكاً أمام نظرتها الصامتة .. ثم أردف :

- لم أوتوق أنك تعرفينه .. هل تقابلت معه من قبل ؟

أجابت من خلال تهيدة قصيرة :

- وماذا يفيد الآن.

- كنت أسمع عنه .. أنه رجل طيب ، ولكنى حقاً مندهش

لتصرفه هذا كيف وهو فى هذا العمر يفكر فى القتل .. ولماذا.

ظهرت ابتسامة باهتة فوق شفثيها .. وقالت :

- لا ترهق نفسك بالاندهاش .. فمازال القدر يكشف لنا كل يوم

ما يثير الدهشة.

وجدها فرصة لينفذ إلى موضوع كان يضمره، فبادرها قائلاً:

- أخشى أن يكون عمى لا يزال غاضباً منى.

لم تجبه .. وصلاً إلى أول درجات السلم المؤدى إلى الطريق،

فأعاد عليها مخافة مرة ثانية مما دفعها لكى تجيبه قائلة :

- لا تشغل بالك بهذا الأمر .. فأنت أمامك أكثر من طريق

يمكنك السير عليه .. لاحقها فى الحاح :

- طريقى معك .. وأنت.

توقفت عن النزول وهى تقاطعه :

- أسمع يا عمرو .. أقسى شىء فى الدنيا أن يخذع الإنسان نفسه. والأبشع من هذا أن يستمر فى خديعتها إذا ما اكتشف ذلك.

- كلامك غير واضح يا بشرى .. تعلمين كم أحبك.

واصلت هبوط السلم .. ثم قالت بهدوء :

- أنت لم ولن تحبنى قط.

- مستحيل .. ولكن الظروف هى التى ..

ومرة أخرى تقاطعه ولكن بنبرة حازمة :

- الظروف هى التى جعلتك تتقن تلميحائك لى بأنك تحبنى

حتى كدت أن أصدق خيالى ، وأنت لاه فى حبك لأحلام .. الظروف

هى التى جعلتك تتحول عن أحلام إلى هدى .. ثم الظروف تجعلك

تعود إلى من جديد .. ألا ترى أنك قد حملت الظروف فوق ما

تحتمل ..

- أنت متوترة الآن يا بشرى .. أنا لم أعهد فىك هذا التفكير

من قبل.

فسارعت فى سخرية تقول :

- لأنك لم تفكر فى من قبل.

بدأ الانفعال يتحرك فى صدره وهو يقول :

- وحبك .. وحبى .. ثم ما الذى دفعك لمساندتى .. ألسنت أنت

وراء حضور المحامى .. لا تفسرين سر إهتمامك بى، سوى أنك

تجيبيننى وأنا أحبك.

- لقد وقفت بجانبك في هذه الأزمة لأننى كنت مؤمنة ببراعتك
من هذه الجريمة .. ولكنك لست بريئاً من جرائم أخرى قد لا تخضع
للقانون البشرى.

- صدقنى يا بشرى .. أنا كرهت أحلام .. كرهتها.

أنتهيا من درجات السلم ثم التفتت إليه قائلة :

- صدقنى أنت يا عمرو .. القلب الذى عرفت الكراهية
الطريق إليه لن يجد الحب مكاناً فيه.
- لا يابشرى .. فأنا ..

ولكنه توقف عن الكلام عندما ظهرت أحلام منصرفة، تاركة
أباها وراءها يخطو بخطى ذليلة .. بدت وكأنها خارجة لتوها من
قاعة للسينما وليس من قاعة محكمة قد انتهت بداخلها حياة أقرب
الناس إليها، لا أثر فى عينيها لدمعة حزن ولا مسحة من التأثير على
وجهها، كانت تقفز درجات السلم وكأنها تهرب من شبح يطاردها
ويخيفها أو أنها على موعد قد تذكرته فجأة بعد إنشغالها بأحداث
المحاكمة، فتركت كل شيء خلفها حتى أباها المنهار.

تعمدت وهى تتجاوزهما أن ترمقة بنظرة سريعة، أحس بها
تتفد إلى صدره كالسهم المسموم واضطربت أوصاله من صوت
بشرى وهى تقول :

- ألا تذهب وتتبعها ؟

- أرجوك يا بشرى أمنيئى الفرصة .. سأحاول أن .. ولكنها
تقاطعه بحزم وهى توليه ظهرها منصرفة :

- أرجوك لا تحاول .. حتى لا تكمرنى معك ..

وقف برهة يتابع انصرافها، ثم التفت إلى الاتجاه الآخر وبلا تردد انطلق مهوولاً في كل جانب باحثاً عن أحلام حتى توقف فجأة وكاد يتوقف قلبه معه عندما رآها تستقل سيارة فارهة يقودها هشام وهى تبادللة الابتسامة. شعر بصدرة يتمزق من أنفاسه اللاهثة وهو متمسك فى مكانة مذهول أو حاقد .. دار بعينيه حوله فى حيرة كأنه يبحث لنفسه عن طريق .. أى طريق، حتى ولو كان مشابها للطريق الذى اختارته أحلام لنفسها .. ولكنه لم يتحرك .. ولم يستطع، فكانت أحاسيس الغربية أقوى من إرادته .. ولم يستطع، فكانت أحاسيس الغربية أقوى من إرادته .. حاول أن يطلق نظرتَه نحو الطريق اذى انطلقت عليه بشرى فلم ير شيئاً، كانت ابتعدت كثيراً عن مدى بصره وعن آماله أيضاً .. فهى اخترقت الزحام بثبات ولم تحاول أن تلتفت وراءها .. كانت تتعاش مع لحظة من الماضى القريب وهى تستعيد صورة الجد أمين وهو يصرخ فى المحكمة :

- لست نادماً .. لست نادماً ..

وبطرف أصبعها أزاحت من فوق جفنها دمعة طفرت دون إرادتها، وأطلقت زفرة طويلة من رئتيها وهى تردد فى أعماقها :
- تراه كان يسمنى وأنا أعاهده ..

★ ★ ★



كالعصفور الذى يترنح فى الفضاء الفسيح ..

يبحث عن غصن شارد يختبئ وراءه.

يهيم وسط صحراء جرداء، كالنبته التى

بلا جذور كأنه كيانه بلا ظلال .. جسد

بلا وجدان.

يبحث عن ذاته بعيدا عن أعماقه .. كإنتماء

الغرباء. قمة الخداع للنفس أن يغمض الإنسان

عينيه متصوراً

والحقيقة .. إنه الوحيد الذى لا يرى نفسه

أحمد فريد